

دروس تأصيلية

في مسائل الاعتقاد

إلقاء فضيلة الشيخ

عبد الله بن عبد العزيز العنقري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

[٦ دروس]

النُّسخة الإلكترونية الثَّانية

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

[الدرس الأول]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعدُ؛

فيما يتعلَّق بالموضوع الذي سيُطرح كأنَّ بعض الإخوة ذكر أنَّه سيُطرح شرح الطَّحاوية، وشرح الطَّحاوية في الحقيقة شرحته منذ سنتين اثنتين، وهناك ما نرجو أن يكون فيه فائدة مساوية لفائدة شرح الطَّحاوية، ويقلُّ الكلام فيه وهو ما يتعلَّق بالتَّأصيل في مسائل الاعتقاد.

فإنَّ مسائل الاعتقاد تحتاج إلىٰ أن تؤصّل وأن تُرتَّب، وأن يعرف طالب العلم من أين يبدأ، وأن يعرف أيضًا السُّني أنه علىٰ بصيرة في هٰذه العقيدة، وأنَّه في حبل ممدود إلىٰ رسول الله ﷺ؛ إذ إنَّ أمور الاعتقاد أمور عظام كبار لا يصلح أن يكون الإنسان فيها خرَّاصًا ظانًّا متوقِّعًا مخمِّنا؛ بل لابدّ أن يكون علىٰ بصيرة.

فرأيتُ أنَّ التَّأصيل الذي يمرُّ بإذن الله علىٰ الموضوعات الموجودة في كتاب الطحاوية ويمرُّ أيضًا علىٰ الموضوعات الموجودة في كتب الاعتقاد، وأنواعها وكيفيَّة التّعامل معها، رأيت أن هٰذا من الأهمِّية بمكان؛ لأننا نجد -ولعلكم تحسُّون بهذا أيضا- أنَّ بعض طلبة العلم يكون لديه معرفة بمسألة متقدِّمة جدًّا لا يعرفها -عادةً- إلا أهل العلم المبرِّزين، ثم تجد أنَّ مسألة تعدُّ في بدايات الطَّلب لا يعرفها، السَّبب في هٰذا هو عدم المنهج الدَّقيق في دراسة المسائل، وهٰذا يقع سواء في مسائل الاعتقاد أو في مسائل الأحكام، وهٰذا كثير.

فرأيتُ أنّ من الأهمِّية بمكان أنْ نتناول هٰذا الأمر الإجمالي العام بحيث يعود النَّفع بإذن الله علىٰ الجميع فيما يتعلَّق بكتاب الطّحاوية مثلا وبغيره ممَّا هو أجلّ منه وأعظم؛ من كتب السلف المتقدمة المروية بالسند والتي تجد بعض إخواننا يجهل شيئًا كثيرًا ممَّا فيها.

من المعلوم أنَّ أهل السُّنة -ثبَّتنا الله وإيَّاكم علىٰ معتقدهم- لا يوجد لديهم في الاعتقاد مسألة واحدة إلَّا وهي مبنيَّة علىٰ دليل، فإذا جاءت مسألة من المسائل التي ليس فيها دليل فإنَّهم يقولون: سكتت الأدلَّة فكيف نتكلّم نحن؟! إذا لم يكن هناك دليل علىٰ المسألة -مسألة عقدية غيبيَّة- ليس فيها دليل، فكيف يمكن الكلام؟ لا يمكن الكلام في هٰذه الحال، وهٰذا -بإذن الله وحوله- سيأتي له نماذج وأمثلة في وقته؛ لكنْ أحببت أن أضع عدَّة مقدِّمات في البداية إن شاء الله تعالىٰ:

أوَّلها: حقيقة اعتقاد أهل السُّنَّة.

حقيقة اعتقاد أهل السُّنّة -رحمهم الله- أنَّهم يقولون: الاعتقاد علىٰ نوعين اثنين:

الأوَّل مجمل؛ يعني يكون عنده اعتقاد إجمالي، وهو: أن يؤمن بالله ورسوله ﷺ، ويُقِرُّ بجميع ما جاء به، وإن خفي عليه شيء ممَّا جاء به؛ لأنَّ إيمانه هنا إجمالي، مثل إيمان العوام الذين يكون لديهم إيمان حقيقي ومنجي بين يدي الله؛ ولكنَّ كثيرًا من مسائل الاعتقاد التي لا تكون مشهورة وكبيرة تخفىٰ عليهم.

فمثلًا: العامّي قد لا يعرف أنَّ في القيامة قَنْطرة بعد أن يتجاوز المؤمنون الصِّراط، هـٰذه القنطرة يوقف عليها أهل الجنّة، فلا يدخلونها حتىٰ يُقتصَّ لبعضم من بعض، عنده إيمان إجمالي باليوم الآخر، قد يعلم بعض المسائل الكبرىٰ في اليوم الآخر، ولابدّ أن يكون عالمًا بها، مثل البعث والجزاء والحساب والجنة والنار هـٰذه داخلة ضمن الإيمان الإجمالي يعرفها؛ ولكن تفاصيل ما يتعلَّق بعرصات القيامة قد لا يعرفه، مثل ما ذكرنا علىٰ سبيل المثال موضوع القنطرة.

فهؤلاء الواجب عليهم -مثل ما قلنا- أن يؤمن بالله ورسوله وبجميع ما جاء به من الأصول الكبار المعروفة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، هـٰذه لابدّ أن يؤمن بها لأنّها أصول الإيمان السِّتة.

وكذلك يؤمن بما أمر الله وأنَّ الواجب أن يؤدَّىٰ، ويؤمن بما نهىٰ الله وأنَّ الواجب أن يُترك، أما التَّفاصيل فقد يعجز عنها، هـٰذا فيما يتعلق بالإيمان الإجمالي.

تعلم أنَّ النَّجاشي ﷺ مات مسلمًا، ولما مات صلَّىٰ النبي ﷺ صلاة الغائب وصفّ أصحابه وصلَّوا عليه، هل عند النَّجاشي من تفاصيل الإيمان ما كان عند أبي بكر وعمر؟ لا، لأنَّه في الحبشة، وتأتي أحكام ولا تصله؛ لكن هٰذا هو ما يستطيعه من الإيمان، الذي كان يستطيعه من الإيمان هو هـٰذا؛ لأنه كان عنده إيمان إجمالي؛ لأنَّه لم ير النَّبيّ ﷺ وإنما تلقىٰ عن جعفر رضي الله عنه وعمّن كانوا هاجروا إلىٰ الحبشة فقط، هٰذا الذي يستطيع أن يصل إليه، ثم إنَّه وُجدت أمور لم يعرفها ونزلت آيات لم يعرف تفاصيلها، فهـٰذا حسبه أن يعلم إيمانا تفصيليا ، هٰذا النوع الأول من أنواع الاعتقاد.

النَّوع الثَّاني هو الإيمان التَّفصيلي، وذلك بأن يُقر المؤمن بما ثبت وعلمه، الشيء الذي يثبت عنده ويعلمه، يؤمن به تفصيلًا.

المثال الذي أوردته قبل قليل؛ مثال القنطرة التي تكون في عرصات القيامة، لو أنَّ عامّيا لم يسمع بها ثم سمع بها في خطبة جمعة أو في حديث، وعلم أنّها عن النّبي ﷺ ، يلزمه أن يؤمن بها، الآن وصلته وثبتت، فهـٰذا معنىٰ التَّفصيل.

ومن هنا تعلم أنَّ الواجب في الاعتقاد يتفاوت، هناك أصول كبار لابد أن يحيط بها كل مسلم، مثل الأمور المعلومة من الدين بالضرورة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، هـٰذه لابدَّ أن يُلمَّ بها كل أحد، وجوب الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجّ وتحريم الزِّنىٰ وتحريم الخمور، هٰذه أمور قد عُلمت من الدِّين بالضَّرورة فيعرفها الجميع؛ لكن التَّفصيل يتفاوت بحسب ما ذكرنا قبل قليل.

ومن هنا يجب علىٰ العُلماء -والمقام هنا يمكن أن يقسم إلىٰ ثلاثة أقسام،- يقال:

يجب علىٰ العلماء ما لا يجب علىٰ العامَّة؛ لماذا؟ لأنّ العلماء عندهم تفاصيل أكثر بكثير ممَّا عند العامّة.

ثم إن العامة الذين نشؤوا في دار علم يجب عليهم أكثر ممَّا يجب علىٰ العامَّة الذين نشؤوا في دار جهل.

فمثلا العامِّي الذي نشأ في مثل هـٰذه البلاد تجد أنَّه يعرف أمورًا كثيرة من أمور الاعتقاد، أمَّا الذي نشأ بدار جهل، والمقصود بدار الجهل مثل البوادي البعيدة، نائية ليس فيها علم، والشَّخص الموجود في تلك

البادية خلف غنمه أو إبله لا يستطيع أن يقرأ ولا أن يكتب ولا يصل إلىٰ البلدان إلَّا في فترات متقطِّعة جدًّا فلا يستطيع أن يعرف شيئًا كثيرًا ممّا يجب عليه، فهٰذا العامِّي الذي نشأ في البادية البعيدة، أو في بعض المواضع؛ جبال نائية ويسكنها أناس وتكون شديدة الارتفاع ويمكث بعض الناس في هٰذه المواضع سنين طويلة من أعمارهم حتّىٰ يموتوا وهم قاطنون في تلك المواضع، في جبال بعيدة، هؤلاء لا يصل إليهم من العلم مثل الذي يصل إلىٰ العامَّة الموجودين في الحواضر وفي المدن.

فيجب علىٰ العالم أكثر ممَّا يجب علىٰ العامّي.

ثم العامّة فيهم تفاصيل، فالعامّي الذي نشأ في دار العلم مثل الذي نشأ في الرِّياض مثلا حوله العلم كثيرًا ما يسمع، وكثيرا ما يتمكَّن من الوصول إلىٰ أهل العلم ولو حتىٰ بالهاتف فيسهل عليه ذلك، يجب علىٰ هٰذا أكثر ممَّا يجب علىٰ العامي الذي نشأ بدار جهل.

وهٰذا أمر فصَّله الإمام أبو العبَّاس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في الفتاوىٰ (مج٣/ ص٣٢٧-٣٢٨)، هٰذا ما يتعلَّق بحقيقة الاعتقاد وأنه مجمل ومفصل .

المسألة الثَّانية كلمة (أهل السُّنة).

هٰذه الكلمة تُطلق ويراد بها معنيان اثنان:

أمّا المعنىٰ الأوَّل فهو إطلاق عامٌّ يدخل فيه جميع الطّوائف سوىٰ الرَّافضة، جميع الطوائف سوىٰ الرَّافضة يصدق عليهم أنّهم من أهل السُّنة العامّة، كما بيَّن أيضًا الإمام أبو العباس ابن تيمية في «منهاج السنة» في (مج٢/ ص ٢٢١) لكن هل هٰذا الإطلاق إطلاق علمي ؟ ليس إطلاقًا علميا، ولهٰذا يقول الشيخ أبو العباس رَحِمَهُ اللهُ في «الفتاوىٰ» في (مج٣/ ص ٣٥٦): هٰذا إطلاق العامّة-العوام-؛ لأن العامة لا يعرفون إلا أن الناس قسمان إما سني وإما رافضي، فمن لم يكن رافضيا فهو عندهم سني، هكذا يفهم العامي، ولهٰذا قال: هٰذا إطلاق العامة؛ كل من ليس رافضي فهو عندهم سنِّي، وهو إطلاق مشهور عند كثير من الناس، ويتداول بين الأدباء والصَّحفيين وغيرهم بهذا الإطلاق، فيدخل في هٰذا الإطلاق كل من سوىٰ الرّافضة، وضابطه من أثبت خلافة الخلفاء الثّلاثة أبي بكر وعمر وعثمان أُطلق عليه، أمَّا (عليّ) فمعلوم أنّ أهل السُّنَّة لا إشكال عندهم فيه، هو رابع الخلفاء؛ لكن الرافضة لما كانوا لا يقرون بخلافة الثلاثة صار من يقر بخلافة الثلاثة مقابلا لهم، وصار يطلق عليه سنّي عند العامة –العوام– مقابل الرافضي، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: فإن العامة لا يعرفون غير السُّني إلا الرَّافضي، من لم يكن رافضي فهو سني، هكذا يفهمون؛ لكن هٰذا إطلاق عامّي ولا يضبط الأمور، ليس إطلاقًا علميًّا.

الإطلاق الثَّاني لكلمة (أهل السُّنَّة) إطلاق خاص، ويمكن أن نسمِّيه بالاصطلاح العلمي وهو أن المراد بأهل السُّنّة من يسمون بأهل الحديث والسنة المحضة، –الخالصة الصِّرفة التي ليس فيها بدعة– كثيرا ما يذكرهم ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بهذا الاسم، يقول: فلا يدخل فيهم إلا من يقرّ بالأصول المعروفة عند السلف، في موضوع الأسماء والصفات، وفي موضوع القدر، في موضوع الرُّؤية –رؤية الله تعالىٰ– في موضوع الإيمان، في سائر أبواب الاعتقاد.

فعرفنا أنّ هٰذه الكلمة تُطلق بهذين الاعتبارين، ولهٰذا تجد أنَّ أبا العباس رَحِمَهُ اللهُ ابن تيمية في نقاشه مع الرَّافضي في «منهاج السنة» يقول له: المعتزلة أهل السنة، كيف المعتزلة من أهل السنة؟ يعني بالاعتبار الأول: أن المعتزلة ضد للرافضة، ويقولون: نحن مقابل للرافضة مع السنة بهذا الاعتبار، فبهذا الاعتبار يقال: إن من ليس برافضي فهو سنّي عند العامة، أمّا الإطلاق العلمي إذا قيل: أهل السنة، اعتقاد أهل السنة، فلا يكون إلا بالاطلاق الثاني وهو السنة المحضة الخالصة النقية من البدع التي ليس عند أهلها إشكال لا في موضوع القدر، ولا في موضوع الأسماء والصفات، ولا في موضوع الإيمان، ولا في موضوع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ولا في موضوع اليوم الآخر والقبر ونعيمه وغيره، ما عندهم إلا ما في النصوص، فلهٰذا سُمُّوا بأهل السنة .

هذان الاطلاقان ينبغي علىٰ طالب العلم أن يضبطهما؛ لأنه في الحقيقة في بعض الأحيان قد يطلق العالِم علىٰ طائفة من الطَّوائف أنهم من أهل السنة بهذا الاعتبار، وتكون هذه الطائفة عندها بدعة؛ يعني أنهم من أهل السنة بهذا الاعتبار ليسوا روافض، هٰذا المعنىٰ، ولكن لديهم بدع من جهة أخرىٰ، كأن يكون لديهم بدع في الأسماء والصفات، أو في القدر، أو عندهم شيء من الإرجاء في مسألة الإيمان أو غيره، أو عندهم مقولة من مقولات الخوارج، فإذا ضبط هٰذا وعرف أن أهل السنة تطلق تارة بهذا الاعتبار وتارة بهذا الاعتبار تبيَّن له الأمر.

مسألة مرتبطة بهذه وهي خطورة الخلط بين أهل السُّنَّة العامة وأهل السنة الخاصة، الخلط هنا خطير جدًّا، وهو ما فعله ابن المطهّر الرافضي صاحب كتاب «منهاج الكرامة» الذي ردّ عليه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «منهاج السنة»، ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لاحظ أن ابن المطهر ينقل عن طوائف مثل المعتزلة أو عن الأشعرية ويقول: هو قولكم معاشر أهل السنة، ولهٰذا في نفس الموضوع الذي ذكرته في «منهاج السنة» في (مج٢/ ص ٢٢١) ذكر أنّه ينقل عن طوائف من أهل السنة العامّة أقوالًا وينسبها لأهل السُّنة والحديث، وهٰذا من التّدليس والتزوير؛ لأن ابن المطهر وأمثاله يعرف أن المعتزلة –مثلا– غير مرضيين عند أهل السنة من جهة الاعتقاد في مسائل الصفات علىٰ سبيل المثال أو في مسألة القدر؛ ولكن إذا زلّت المعتزلة بقول قال: إن هٰذا قولكم أهل السنة أو زلت الأشعرية بقول قال: إن هٰذا قول أهل السنة، فتفطن له الإمام أبو العباس رَحِمَهُ اللهُ ونبّه علىٰ هٰذا التّدليس، وبيَّن أنه لا يصلح أن ينسب لأهل السنة في اعتقادهم إلا بالنظر إلىٰ الإطلاق الثاني الذي ذكرناه؛ وهو أهل السُّنة المحضة –الخالصة النقية من شوائب البدع في أيّ باب من أبواب الاعتقاد– ولهٰذا لا يجوز لأحد أن يقول: إن هٰذه عقيدة أهل السنة إلا إذا كان يقصد أهل السُّنة المحضة الخالصة، أمّا أن يقول: هٰذه عقيدة أهل السنة ثم يقول: أقصد عقيدة أهل السنة العامَّة، أهل السنة العامة اصطلاح غير منضبط في أمر الاعتقاد؛ لأننا لو نظرنا إلىٰ عقيدة أهل السُّنة عند العامة في موضوع الصِّفات لوجدنا اختلافًا بينا بين السلف رحمهم الله الذين يقولون بإثبات جميع ما أثبت الله، وبين المعتزلة الذين ينفون جميع الصفات، وبين الأشعرية الذين ينفون كثير من الصِّفات سوىٰ سبع فتتفاوت المسألة، فإذا قيل: هٰذه عقيدة أهل السُّنة فلا يصلح أن يُقصد إلا عقيدة الصحابة والتّابعين، ومن سار علىٰ نهجهم من أئمّة الإسلام كمالك الشافعي والأئمة المعروفين، إذا قيل: هٰذه عقيدة أهل السنة.

لكن من حيث التَّمييز بين الطَّوائف يقال: الشّيعة في جهة والسنة في جهة؛ لأن الشيعة تميَّزوا بمخالفة كبرىٰ، ومخالفتهم شديدة جدا في أصل موضوع النُّصوص، وحملتها ونقلتها، فالخلاف شديد جدًّا معهم، بينما إذا نظرت إلىٰ طوائف أخرىٰ تجد أنّها تقرُّ كثيرا من النصوص التي عند أهل السنة، وإن كانت تتأولها وتحرِّفها، فهٰذا أمر ينبغي أن يضبط ضبطا بينا عند طالب العلم حتىٰ لا يكون فيه شيء من الخلل.

هٰذه هي المسألة الأخرىٰ التي تُطرح، بعد أن طرحنا مسألة حقيقة اعتقاد أهل السنة، ومعنىٰ كلمة أهل السنة بالاعتبارين المذكورين.

الأمر الثالث: أهم أمور الاعتقاد، لو قال لنا قائل: ما أمور الاعتقاد الكبرىٰ الرَّئيسة؟ فإنه يقال له: أمور الاعتقاد الكبرىٰ تعود إلىٰ أصول الإيمان السِّتة الواردة في حديث جبريل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حين قال للنّبي ﷺ: ما الإيمان؟ فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله» والإيمان بالله ﷻ أصل جميع الأصول، أساس جميع الاعتقاد «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»، فأساس وأصل مسائل الاعتقاد الكبرىٰ تعود إلىٰ هٰذه المسائل المذكورة في حديث جبريل.

خذ علىٰ سبيل المثال: مسألة عظيمة جدًّا وهي مسألة التَّوحيد، مسألة التَّوحيد تعود إلىٰ الإيمان بالله علىٰ كبرها وعظم قدرها وجليلها، سواء توحيد الألوهيَّة أو توحيد الربوبيَّة أوتوحيد الأسماء والصِّفات تعود إلىٰ توحيد الإيمان بالله.

خذ مسألة أخرىٰ مشهورة جدًّا وهي مسألة القدر إلىٰ أي أصل تعود؟ إلىٰ الإيمان بالله أيضا؛ لأنّ القدر هو تقدير الله ﷻ، مع أن مسألة القدر من المسائل الكبار العظيمة الجليلة جدًّا؛ لكنها ترجع مرة أخرىٰ إلىٰ الإيمان بالله .

خذ ما يتعلّق بالجنَّة والاعتقاد في الجنة والنار والقبر؛ وما فيه من فتنة، وما فيه من نعيم أو عذاب، وما يتعلق بأشراط الساعة، وما يتعلق بعرصات القيامة، وما فيها من الحوض والصِّراط والقنطرة، كلّه يعود مرّة أخرىٰ إلىٰ موضوع واحد وهو موضوع الإيمان باليوم الآخر.

فهٰذه الأصول السِّتَّة الكبار يرجع إليها أمر الاعتقاد كلّه ولهٰذا يصلح أن نقول: العقيدة الإسلامية ترجع بأسرها إلىٰ هٰذه الأصول الستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

هٰذا ما يتعلَّق بأمور الاعتقاد الكبار، ولعله يأتي بإذن الله وحوله كلام علىٰ بعض المسائل الكبيرة مثل مسألة الإيمان وأهم ما يُقال فيها في مسائلها والمصنفات التي صنفت فيها، بحيث يكون طالب العلم -إن شاء الله- علىٰ بصيرة في هٰذه المسائل.

المسألة الرّابعة التي تطرح اعتقاد السَّلف رحمهم الله، كثيرًا ما تسمع من أهل العلم رحمهم الله هٰذه عقيدة السَّلف، هٰذه الكلمة (عقيدة السلف) تدلُّ علىٰ شيء وهو أن السلف لهم عقيدة واحدة، وكذلك الأمر، بخلاف غيرهم فمثلًا غيرهم إذا قيل: هٰذا قول المعتزلة، المعتزلة عشرون فرقة، ذكر أبو المظفَّر السَّمعاني ؒ أن كل فرقة من العشرين تكفِّر الباقي؛ تكفرها للتَّباين الشَّديد في الأقوال بينهم، فإذا كانوا يكفِّرون هٰذا التَّكفير فيما بينهم، فكيف بغيرهم، وهو من باب أولىٰ أن يكفروا من سواهم، فكلمة (عقيدة السلف) تدل

علىٰ أن السلف لهم اعتقاد واحد هو اعتقاد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وبقيَّة العشرة وأهل بدر والمهاجرين والأنصار، ولهٰذا يُجيب أبو العبّاس ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ في «الفتوىٰ الحمويَّة» لما قيل: ما اعتقادكم في مسائل الصّفات؟ قال: اعتقادنا فيها هو اعتقاد الصَّحابة من المهاجرين والأنصار. ما عندهم إلّا اعتقاد واحد، وكذلك التّابعون لهم بإحسان؛ الذين اتّبعوا الصَّحابة رضي الله عنهم بإحسان ليس عندهم إلّا اعتقاد واحد، فهناك وَحدة عقديَّة في الأمّة، ولم تصب الأمة بمقتل أعظم ممَّا أصيبته بالمقتل الذي أصابها لما تشكَّلت الفرق والطَّوائف الضَّالة فصار الاعتقاد عند هؤلاء غير الاعتقاد عند هؤلاء، ووقع ما نهىٰ الله عنه حين قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الروم]، هٰذا لم يكن في الصَّحابة رضي الله عنهم أبدًا، وهٰذا ما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما للخوارج لما ناقشهم، قال: ما فيكم أحد من أصحاب محمَّد. ليس في أصحاب محمَّد صلى الله عليه وسلم خارجي؛ لأنهم رضي الله عنهم قد ربّاهم سيد المربِّين -صلوات الله وسلامه عليه- فأكرم وأنْعِم بها من تربية، فصاروا يتلقَّون التلقي الصحيح السليم البعيد عن الإحداث والبدع، وهٰذا من أعظم النَّتائج الذي ترتبت علىٰ كون السَّلف رحمهم الله علىٰ اعتقاد واحد.

أعظم النَّتائج التي ترتَّبت علىٰ هٰذا أنهم لم يكن فيهم فرق وأحزاب، ولم يكن فيهم شيع، كما صار فيمن بعدهم، وتقدّم قول ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج: ليس فيكم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد روىٰ ابن جرير في (مج٣/ ص ١١٩) أنَّ قتادة قال: إنّ الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير بالمدينة والشّام والعراق وأزواجه يومئذٍ أحياء، والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثىٰ حروريًّا قط. يعني الصحابة قوله: (والله إن خرج) يعني ما خرج، (إن) هنا بمعنىٰ (لا)، وبمعنىٰ ما النَّافية، فإنَّ كلمة (إن) تُستخدم للنَّفي في بعض المواضع، فقوله: (والله إن خرج) يعني والله ما خرج منهم ذكر ولا أنثىٰ حروريّ قط؛ لأنّ الصّحابة رضي الله عنهم أجلُّ وأرفع من أن يدخلوا في اتّباع أحد بعد النَّبيّ صلى الله عليه وسلم إذ هم يصدرون عن قوله -صلوات الله وسلامه عليه- فإذا رفع مبتدع رايته فإنّهم لا يعينونه ولا يسايرونه ولا يمشون معه، إذ اكتفوا بإمامة محمّد صلوات الله وسلامه عليه.

هٰذه هي النَّتيجة الأولىٰ.

النتيجة الثَّانية -ويأتي لها بإذن الله أيضا شيء من التفصيل عند الكلام علىٰ عموم أهل السُّنة-، النتيجة الثانية في وحدة عقيدة السلف شدّة استمساكهم بالنصوص إذا جاء الواحد منهم النص رمىٰ بكلامه عرض الحائط، ولم يقدِّم علىٰ النَّص شيئا، وفي الوقت الذي اشتد استمساكهم بالنص اشتدت حروبهم للمبتدعة بلا أدنىٰ هوادة؛ لأن الإنسان إذا كان نقي الثَّوب طاهرا لا يرضىٰ بأن يدنس هٰذا الثوب بأدنىٰ دنس، والبدعة تدنِّس المجتمع المؤمن النَّقي الماضي علىٰ السُّنة، ولهٰذا كانوا – رضي الله عنهم وأرضاهم- شديدي الحرب للبدعة ولأهلها، ولذلك نماذج كثيرة جدًّا نأخذ بعضًا منها:

من أشهر هٰذه النَّماذج ما وقع زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان رجل يدعىٰ صَبيغَ بن عِسل التَّميمي يسأل عن متشابه القرآن، يكثر السؤال عن الأمور التي فيها نوع من الوعورة والصُّعوبة والغرابة والتي قد يترتّب علىٰ طرحها شيء من الارتباك عند بعض الناس، فسمع به عمر رضي الله عنه فقال: اللّٰهمَّ أمكني

منه. يدعو بأن يمكِّنه الله منه حتَّىٰ يعاقبه، فبينا هو مرة يغدِّي الناس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ جاء صبيغ فتغدَّىٰ ثم بدأ يسأل، فساعة سأل عرفه عمر مباشرة؛ لأنه كان يسأل أسئلة المتكلِّفين أسئلة فيها نوع من التكلُّف، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، لاحظ حتَّىٰ التَّكلف في عبارته، ما قال: أنا صبيغ مباشرة، والعادة أن العبارة هٰذه يقولها عادة الحكَّام والخلفاء، يقول: من عبد الله أمير المؤمنين ، وهو شخص عادي، فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وأنا عبد الله عمر، ثم كان قد أعدَّ له عراجين من عراجين المدينة فضربه ضربا مبرِّحا حتَّىٰ سال الدم علىٰ عقبيه، كما روىٰ الدّارمي، وقال ابن حجر وابن كثير سنده صحيح، فلما ضربه هٰذا الضَّرب الشَّديد، قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، وإن كنت تريد أن تقتلني فاقتلني قتلًا جميلا، لا تضربني هٰذا الضَّرب حتىٰ أموت؛ اضربني بالسيف واقطع رقبتي وأرحني، أما هٰذا الضَّرب فسيهلكني أمَّا إن كان قصدك علاجي من الدخول في مثل هٰذه المسائل فوالله برئت؛ شفيت، فكتب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري في الكوفة وسَيَّرَهُ إلىٰ الكوفة أن لا يجالسه أحد، لا يجلس معه أحد نهائيا، فلما رجع إلىٰ الكوفة ودخل علىٰ الحلقة عدد من النَّاس يريد أن يجلس معهم يقومون ويتركونه، وإذا ذهب إلىٰ الحلقة الأخرىٰ نادتها الحلقة الثَّانية عزمة أمير المؤمنين، يعني لا تمكِّنوه من الجلوس معكم حتىٰ ضاقت به الأرض، فجاء لأبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأخبره بأنَّه قد تاب توبة حقيقية وأنه يريد أن يجالس الناس؛ لأن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سجنه في غير سجن؛ سجنه داخل البلد بحيث لا يكلِّمه أحد، فكتب أبو موسىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الرجل قد تاب وحسنت توبته، فكتب عمر إلىٰ الناس أن يجالسوه.

كلُّ هٰذا لأن صبيغًا كان يسأل عن مسائل لا تأتي واحد في المائة ممَّا كانت تسأل عنه المعتزلة والجهمية والقدرية فيما بعد، إذ دخلوا في أشياء هي أشدّ بكثير مما كان يقوله صبيغ، ولهٰذا قال الشافعي رحمة الله عليه: حكمي في أهل الكلام -مثل المعتزلة والجهميّة والأشعريّة وأمثالهم- حكم عمر في صبيغ؛ لأنّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضرب صبيغًا هٰذا الضّرب الشديد لأجل أنه دخل في مسائل لا يصلح أن يُدخل فيها، وصار يخوض في أمور تؤدي إلىٰ التَّشويش علىٰ اعتقاد الناس، قال: فكذلك المتكلمون دخلوا في هٰذه المسائل بنفس المدخل الذي دخله صبيغ ولكن أضعاف أضعاف ما كان يفعل صبيغ، فحكمي فيهم هو حكم عمر في صبيغ.

ولهٰذا جاء عنه من طريق آخر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: حكمي في أهل الكلام -مثل المعتزلة والجهمية وأمثالهم- أن يضربوا بالجريد والنِّعال ويطاف بهم في العشائر والأسواق، ويُقال: هٰذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل علىٰ الكلام. أن يشهر بهم ويطاف بهم في الناس في الأسواق وفي القبائل وأن يضربوا مع ذلك هٰذا الضرب ويقال: يعني يوضع منادٍ ينادي: هٰذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل علىٰ هٰذه المبتدعات.

نموذج ثاني مما كان في زمن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يقفون من المبتدعة موقفا عظيما صُلبًا، موقف أمير المؤمنين علي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه- فقد ثبت في البخاري أنّه أُتي بقوم من الزَّنادقة فأحرقهم، هٰذا الحديث رقم (٦٩٢٢) هؤلاء هم أوائل الرافضة، قدماء الرافضة.

ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في «الفتح» في (مج١٢/ ص٣٣٨) رواية حسَّن سندها أن هؤلاء الذين أحرقهم

ادعوا فيه أنه ربهم وخالقهم عياذًا بالله. فقال لهم: ويحكم أنا رجل مثلكم أُمرض كما يُمرض العبد وآكل وأشرب شأني شأن العبد، فكيف تدعون في هٰذا، ثم ذهب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ المسجد، ظن أنه قد أنهىٰ بذلك بدعتهم، قالوا له: إنك ربنا، فقال: لست بربِّكم، المفترض أن تنتهي هٰذه الشُّبهة، فرجعوا، وفي اليوم الثّالث أُخبر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم علىٰ الباب وأنهم يدَّعون هٰذه الدعوىٰ، فهدَّدهم أن يقتلهم قتلة ما قتلها أحد، وهٰذه القتلة هي إحراقهم بالنّار، فخدّ أخاديد في الأرض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصار يلقي الحطب وفيها بيت الشعر المشهور عنه:

لمَّا رأيت الأمر أمرا منكرا أججت ناري وأمرت قُنبرا

(قنبر) أحد غلمانه، فأوقد النار فقال: إما أن ترجعوا عن مقولتكم، وإمّا أن أقذفكم في النار، فتساقطوا فيها والعياذ بالله، وكان قتله بالحرق، رأىٰ أنّهم لا يقتلون بالسَّيف، مع أن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا انتقد هٰذا وقال: لو كنت أنا موضعه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لقتلتهم لأنّ النبي ﷺ قال: «**من بدّل دينه فاقتلوه**» ولما أحرقتهم؛ لأن النَّار لا يعذب بها إلا الله، فلما بلغ ذلك عليا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شعر بأن كلام ابن عباس صحيح فقال: ويح ابن أم الفضل ما أسقطه عن الهنات، يعني سقط علىٰ هٰذه المسألة التي كان الصَّواب أن يُقتلوا بالسيف، لكنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لشدة الحمية والغيرة علىٰ دين الله وعلىٰ معتقد المسلمين لم يمسك نفسه فأجج النار وقتلهم بالقذف فيها –عليه رضوان الله وأجزل له المثوبة– لأنها مقولة خطرة ووُجدت فيما بعد وصار يؤلَّه تأليها عياذا بالله، وصار يُدَّعىٰ فيما يدَّعىٰ في الرب، ولكنه ما قصر –عليه رضوان الله– وقتل سلف هؤلاء، وصارت عبرة لمن يعتبر، فكونه يُعبد بعد ما مات لا ذنب له كما قال الله عن عيسىٰ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[المائدة:١١٧] في زمنه حين كان حيًّا وحين كان خليفة ما أبادهم، لكن فيما بعد لا ذنب له رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

ومن النَّماذج أيضا علىٰ شدة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ علىٰ البدعة النَّموذج المشرِّف الذي وقفه صغار الصَّحابة زمن النبي ﷺ ثم لما امتدت بهم السِّنين صاروا الكبار في الأمّة حين خرجت القدرية الأوائل، القدرية الأوائل معبد الجهني وجماعته خرجوا في وقت كان فيه أصحاب النَّبي ﷺ متوافر منهم من كانوا صغارًا زمن النبي ﷺ علىٰ رأسهم ابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ممن كانوا صغارًا زمن النَّبي ﷺ فوقفوا من القدرية موقفًا شديدًا جدًّا.

وأوّل حديث في «صحيح مسلم» بعد المقدِّمة هو الحديث الذي يرويه عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حين سئل لمَّا خرج معبد الجُهني ومن معه في البصرة، فلمَّا بلغ ابنَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قولُهم في القدر قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنّي بريءٌ منهم وأنَّهم بُرءاء منّي.

قال أهل العلم: هٰذه المقولة تدلُّ علىٰ تكفيرهم؛ لأنّهم والعياذ بالله كانوا يجحدون حتىٰ العلم حتىٰ علم الله والعياذ بالله يقولون: لا يُثبت لله، فكانوا يجحدون العلم والمشيئة وخلق الأفعال وكتابة الأمور، فكان قولهم غليظًا جدًّا، ولهٰذا جاء عن ابن عباس وغيره أيضا من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مقولات فيهم شديدة جدًّا لفضاعة ما يقولون.

فالحاصل أنّ موقف السَّلف رحمهم الله من البدعة موقف صارم لا يسمحون بها، وذلك أن المجتمع

زمن الصحابة رضي الله عنهم مثل ما قلنا مثل الثوب النقي الأبيض الذي لو وقع فيه أدنىٰ دنس لتبيَّن؛ لأن السنة هي الظَّاهرة هي العالية بخلاف الحال بعدهم، فصار الثوب ملطَّخا بأنواع من الدَّنس، فإذا جاءت بدعة أخرىٰ فإذا بها تضيع في وسط هٰذا الدَّنس، وهٰذا هو سر قوَّة الصحابة رضي الله عنهم في تصدِّيهم للبدعة؛ لأنهم لا يريدونها أن تتفاقم وأن تفشو في المسلمين حتىٰ تحل محل السنة، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه كيف بكم إذا لبستكم فتنة يشب فيها الصغير ويهرم عليها الكبير، وإذا غُيِّرت قيل: غيرت السُّنة وهي بدعة أصلا؛ لكن شبوا عليها وهرموا عليها، فصارت بنظرهم بمثابة السنة.

المسألة الخامسة التي نطرحها أين نجد اعتقاد السَّلف؟ ما دمنا مربوطين بالسَّلف رحمهم الله، أين أجد قول أبي بكر وقول عمر وقول ابن عبَّاس وهؤلاء الأخيار رضي الله عنهم في الاعتقاد؛ لأنّهم أئمة كما قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[الحشر:١٠]، وهم أئمّة لنا عليهم رضوان الله، ولهٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ ﴾[التوبة:١٠٠]، فالخيِّر الذي يتبع أولئك يتبعهم بإحسان.

هٰذا أمر في غاية الأهميَّة لطالب العلم أن يعرف أين يجد كلام السلف.

فنقول أوَّلا: المصنفات علىٰ نوعين اثنين من حيث العموم:

النوع الأول: مصنَّفات عامَّة، يدخل فيها أمور الاعتقاد كالأسماء والصِّفات والقدر والرُّؤية وغيرها، ويدخل فيها أيضًا ما يتعلق بالأحكام العملية كالطهارة وأحكام الصَّلاة وأحكام الحجّ وأحكام العمرة وبقية مسائل الدِّين مثل ما يتعلق بالبيع والمعاملات.

هٰذا النوع الأول الذي يوردون فيه الاعتقاد مع سائر مسائل الدِّين العملية الأخرىٰ، وهٰذا مثل «صحيح البخاري رحمه الله ».

«صحيح البخاري رحمه الله تعالىٰ» أفرد للاعتقاد عدة مواضع يسميها بالكتاب، فيقول مثلا كتاب الإيمان، كتاب القدر، كتاب التوحيد، في عموم «الصحيح»، فكتابه «الصحيح» مجموعة كتب، فالكتاب الأول كتاب بدء الوحي، والكتاب الثاني كتاب الإيمان، كتاب الإيمان هٰذا يروي بالسَّند رحمه الله تعالىٰ فيه ما يتعلَّق بأمور الإيمان، ثم يذكر كتاب العلم، ثمّ ما يتعلق بالطّهارة، ثم ما يتعلق بالصلاة، ثم بعد عدة أبواب يذكر لك ما يتعلّق بفضائل الصّحابة، وهٰذه مسألة عقدية، ويذكر ما يتعلّق بالأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وهي مسألة عقدية، ويذكر ما يتعلق ببدء الخلق، ما يتعلق بخلق الملائكة والجن والشياطين، وما يتعلق والجنة والنار والجنة والسَّمٰوات والأرض، وهٰذه مسائل عقدية، ويذكر رحمه الله تعالىٰ كتاب القدر إلىٰ أن ختم «صحيحه» بكتاب التوحيد، وفي بعض النسخ (كتاب التوحيد والرد علىٰ الجهمية) في «صحيح البخاري»، فتكون أمور الاعتقاد موجودة في كتاب؛ لكنها ضمن مجموع عام من أمور الدِّين مع الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها.

وكذلك الحال فيما يتعلق مثلا بـ«سنن أبي داود»، فتجد أنّ أبا داود رحمه الله تعالىٰ كما روىٰ الأحاديث في الطّهارة وفي الصلاة والزكاة وغيرها قد أفرد كتبا تتعلق بالسنة مثلا، كتاب السنة كتاب مخصص للسُّنة ،

وغيرها من مسائل الإيمان.

ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في مقدِّمة «السنن» وضع ما سماه: المقدِّمة، ذكر فيه ما يتعلَّق بأمور الاعتقاد، وبعدها ذكر ما يتعلَّق بأمور الطَّهارة والصّلاة وغيرها.

كذلك الحال بالنسبة للإمام مسلم، مسلم لا يبوب، التبويب ليس من مسلم، مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسرد الأحاديث دون تبويب؛ لكنّه بدأ بكتاب الإيمان، وذكر أيضًا كتاب القدر، وذكر كتاب الزُّهد والرَّقائق والجنة والنار وفضائل الصحابة.. وغيرها، وهي مسائل اعتقادية.

فالاعتقاد إمّا أن يوجد ضمن كتب عامّة، كما ذكرنا هٰذا النّوع الأول.

النوع الثّاني أن يفرد الاعتقاد بالذّات بالتّصنيف، فتصنَّف مصنَّفات خاصَّة بالعقيدة ليس فيها ذكر لا للصَّلاة ولا للزَّكاة وأحكامها ولا للطَّهارة، المقصود بها أمور الاعتقاد بالذّات.

ومن أول من فعل هٰذا حمَّاد بن سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعبد الرَّحمٰن بن مهدي وعبد الله بن عبد الرَّحمٰن الدَّارمي صاحب السُّنن رحمهم الله جميعا، هؤلاء من المتقدِّمين، أفردوا كتبًا خاصَّة يروون فيها الأحاديث والآثار المرويَّة في مسائل الاعتقاد بالذَّات، يروونها بالسند رحمهم الله كما يروي البخاري يروونها بالسَّند عن النبي ﷺ.

العلماء من بعدهم مضوا علىٰ هٰذا، وسموا كتبا باسم السنة مثل كتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد، والسُّنة هنا ليست السُّنَّة المشهورة عند الفقهاء ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، السنة هنا معناها الاعتقاد الذي إذا خولف فالمخالف مبتدع، هٰذا معناها، وكثير من الكتب أطلق عليها السنة كـ«السنة» لعبد الله و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي، وغيرهم، وهم أيضًا يروون بالسند؛ فتجد الروايات عن أبي بكر، عن عمر، عن عثمان، عن علي، عن بقية المهاجرين، عن المتأخرين من الصحابة كابن عمر وابن عباس، عن التابعين كسعيد بن مسيب وفلان وفلان مجموعة تجدها مسندة، وتستطيع أن تعرف هل السند صحيح أو غير صحيح.

وقد تسمَّىٰ هٰذه الكتب العقدية باسم الشريعة كـ«كتاب الشريعة» للآجري، و«الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» لابن بطة، وقد يسمونها بكتاب التوحيد كـ«كتاب التوحيد» للإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصنف في المصنفات العقدية كثيرون كالدَّارقطني والطَّبراني وأبي الشيخ وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ.

فإمَّا أن تكون إذن مسائل الاعتقاد ضمن الكُتب العامة التي تصنف في أمور الدين التي تشمل الاعتقاد ومسائل الأحكام العملية كالصلاة والزكاة وغيرها.

وإما أن تفرد في كتب خاصة.

وفي بعض الأحيان بسبب الاعتناء والاهتمام بمسألة من المسائل يفردون مسألة بالتصنيف، كأن يفردوا القدر بالتصنيف كما فعل مثلا الفريابي صنف مصنفا في القدر، وغيره كثير ممن صنفوا في القدر، أو أن يصنف في الرؤية رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويذكرون فيها ما يتعلق بالأسانيد بالرِّوايات عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التَّابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لماذا؟ حتىٰ يكون السُّني علىٰ بصيرة، إذا قلنا: يجب اعتقاد هٰذا، فإننا نقول: اطمئن هٰذا

الاعتقاد الذي نوجب عليك أن تعتقده هو اعتقاد محمد ﷺ بدليل هٰذه الرواية؛ رواها البخاري رواها مسلم وهي اعتقاد المهاجرين والأنصار بدليل ما ثبت رضي الله عنهم فيما رواه اللالكائي فيما رواه الإمام أحمد فيما رواه عبد الله في «السنة»، فيما رواه ابن منده في «كتاب الإيمان» وهكذا ، بحيث يكون الإنسان علىٰ بصيرة، وهٰذا ما ينبغي لطالب العلم أن يدرِّج نفسه ليترقَّىٰ إليه: الاهتمام بالمصنَّفات الموجزة جيِّد وطيب جدًّا؛ لكن ينبغي أن لا يقف طالب العلم عند هٰذا، حتىٰ يكون علىٰ بصيرة بحيث يوصل هٰذا الاعتقاد إلىٰ رسول الله ﷺ ويربطه به وبأصحابه وبالتَّابعين رضي الله عنهم.

ونتم إن شاء الله بقيَّته ..



[الدرس الثاني]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعدُ..

فقد كان الحديث في الدَّرس الماضي يتعلَّق بكتب السَّلف -رحمة الله تعالىٰ عليهم- وأهم المصنَّفات التي صنَّفوها في أبواب الاعتقاد، وقلنا: إنَّ هٰذه الكتب لها أهميَّة بالغة ينبغي علىٰ طالب العلم أن يكون حريصًا عليها غاية الحرص، وهي تروىٰ بالسَّند من المصنف إلىٰ منتهىٰ السند؛ إما النبي ﷺ أو الصحابي أو التابعي رضي الله عنهم أجمعين.

ولهٰذا كان ينبغي علىٰ طالب العلم أن يكون حريصًا علىٰ التعامل الجيّد مع هٰذه الكتب وأن يحرص علىٰ اقتنائها؛ ولكن مثل ما ذكرنا؛ هٰذه الكتب لاشك أنها فيها التأصيل الكبير عند أهل العلم وهي مرجع العلماء، ولابد من التَّدرّج في معرفة العلم بأن يُبدأ بصغاره قبل كباره كما فُسِّر به قوله تعالىٰ: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، قال: هم الذين يعلِّمون صغار العلم قبل كباره؛ يعني لا يبدؤون بالمسائل الكبار في العلم دون أن يلمُّوا بصغارها، وهٰذه الكتب تعدّ كتبًا نفسية وعظيمة وينبغي إحسان التَّعامل معها، وهو ما سنفرد له قسمًا اليوم -إن شاء الله تعالىٰ- خاصًّا؛ طريقة تعامل طالب العلم مع هٰذه الكتب.

لكن وقف بنا الكلام بالأمس عند مسألة وهي مسألة الكتب المصنَّفة في التفسير، هٰذه الكتب نوع من أنواع الكتب التي صنفها السَّلف رحمهم الله تعالىٰ بالسند: منها كتب تكون مطولة وواسعة جدًّا كـ«تفسير عبد بن حميد رحمه الله»، و«تفسير ابن أبي حاتم» وهو في مجمله ومعظم ما فيه نقولات بالسند لآيات القرآن العظيم، فهو ضخم جدّا فيه ألوف الأحاديث والآثار عن النَّبيّ ﷺ وعن الصَّحابة رضي الله عنهم في تفاسير الآيات، فهو من الأهميبة بمكان كبير.

ومن أنفس وأجلّ هٰذه الكتب وأعظمها وأغربها مُتناولًا «تفسير الإمام الجليل محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالىٰ»، فقد جمع فيه رحمه الله تعالىٰ بين الرِّوايات المسندة الكثيرة ونُقول وجوه التَّفسير في الآية مع الترجيح، الرجل رحمه الله صاحب ترجيح وصاحب اختيار عليه رحمة الله، ولهٰذا تسمع أهل العلم كثيرا ما يسمونه بشيخ المفسرين؛ حتىٰ إن بعضهم يسمي «تفسير ابن كثير» رغم جلالة قدره يسميه مختصر ابن جرير، وإن كان الأمر في الحقيقة ليس إلىٰ هٰذا الحد؛ يعني ابن كثير ليس مجرد مختصر بلا شك؛ لأن ابن كثير رحمه الله صاحب اختيار ويرجح أقوالا بخلاف قول الطَّبري، وينقل كثيرًا عن غير الطبري؛ لكن نظرا لأن مادة كثيرة مما في «ابن كثير» موجودة في «ابن جرير» رحمه الله تعالىٰ فإنَّهم أطلقوا هٰذا الإطلاق.

هٰذا ما يتعلَّق بكتب التّفسير، والتي تنقل عن أهل العلم رحمهم الله من أهل السُّنة والجماعة معاني الآيات، وهي مسألة في غاية الأهميّة لطالب العلم، أن يعرف معاني الآيات الكريمة.

وبمناسبة ذكر التفاسير فإني أحث طلبة العلم علىٰ أن يكون لهم فيه في هٰذه الكتب تدرّج، أن يتدرجوا في كتب التفسير يعني طالب علم مبتدئ لا ينصح بأن يفتح تفسير ابن أبي حاتم فيجد آلاف النقول أمامه لا

يحسن التَّعامل معها، ولا تفسير ابن جرير أيضا؛ لأن تفسير ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ متقدِّم، فننصح بثلاثة تفاسير مرتّبة الأوَّل ثم الثاني ثم الثالث:

أوَّل ما ننصح به «تفسير الشيخ عبد الرَّحمٰن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ»، ينصح به طالب العلم المبتدئ، ويحسن أن يكون عند طالب العلم بعد تقدُّمه يكون قريبا منه؛ لأنه الآن بحمد الله مطبوع في مجلد واحد، ومعه أيضا المصحف فيمكن أن تقرأ فيه في التّفسير مباشرة؛ لأنّ المصحف مصوّر فيه الآن أو أن تقرأ في المصحف فإذا أردت الرجوع إليه وجدته في مجلد واحد، فهٰذا أول ما ينصح به طالب العلم؛ لأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تعمد أن يكون ميسَّرا سماه «تيسير الكريم الرَّحمٰن» فتعمد التيسير والتسهيل لتفاسير الآيات.

بعد ذلك يُنصح طالب العلم بأن يعتني بتفسير الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وهو «تفسير القرآن العظيم»، تفسير السَّعدي مختصر موجز وتفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ متوسِّط لا هو بالمطوَّل جدا ولا هو أيضا بالمختصر، ويتميّز ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بمزية نفيسة في كتابه وهي تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالأحاديث كثيرا ما يورد الأحاديث حتىٰ إنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تتوالىٰ عنده خمس أو ست صفحات في النسخة القديمة غير المحقَّقة يوردها أحاديث في بيان معنىٰ آية من الآيات، أو سبب نزول أو ما يبيِّن وجه الآية، وهٰذه فيها فائدة كبيرة لطالب العلم أن يعرف النصوص مجتمعة من القرآن ومن السنة.

المستوىٰ الذي بعده؛ الكتاب الذي بعده هو تفسيرابن جرير الطَّبري «جامع البيان ».

فهٰذه التفاسير في الحقيقة ينبغي أن يكون طالب العلم عارفا بالتدرج الموجود فيها فابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تعمَّد التيسير والإيجاز، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تفسيره بين بين؛ بين المطوّل وبين المختصر، أما ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فتفسيره مبسوط واسع.

فإن قلت: هل أقتصر علىٰ هٰذه التفاسير؟ التفاسير كثيرة، هل أقتصر عليها، أو أطَّلع علىٰ تفاسير أخرىٰ لمصنفها شيء من الابتداع كـ«تفسير الزمخشري» المعتزلي أو تفسير الرّازي المسمىٰ بـ«التفسير الكبير»؟

فنقول: أما المبتدئ الذي لا يعرف ما في هٰذه الكتب ما في هٰذه التفاسير من الخلط العقدي الموجود عند مواضع من الآيات خاض فيها المؤلِّفون هؤلاء وأمثالهم، فإنّه لا ينبغي أن يطّلع عليها، لماذا؟ لأن الأصل أن يبني المعتقد بناءً سليمًا وأن يعرف معنىٰ النّص الصَّحيح أولا،،، أوّل ما ينبغي أن يطرق ذهن المؤمن هو المعنىٰ الحقيقي الصّحيح وأن يعرف الحق قبل أن يطلع علىٰ الباطل.

ومن الأمور التي صار فيها خلل كبير في هٰذه الأزمنة أن الكثير من الناس الآن صار لديه رصيد واسع من الاطّلاع علىٰ الباطل دون أن يعرف الحقّ، فصار يعرف من المقولات الباطلة شيئا كثيرا، حتىٰ من مقولات غير المسلمين سواء من أهل الشّرق أو الغرب، وهٰذا خطأ مناقض لطريقة السّلف بلا أدنىٰ شك، وذلك أن الكثير من الناس أطلقوا لأنفسهم العنان في مطالعة المواقع الموجودة في الشّبكة المسمّاة بالأنترنت أو في القنوات الفضائية أو في الكتب، وأنت تعلم أن نبي الله -صلوات الله وسلامه عليه- لما أتىٰ عمر ابن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بصحيفة من التوراة وصار يقرؤها أعجب عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شيء مما فيها كأنه شيء من المواعظ

أو العبارت الحسنة، فكان عمر يقرأ ولم يتفطن لوجه النبي ﷺ فكان وجه النبي ﷺ يتلوّن تصيبه ألوان من الغضب، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ لعمر على جلالة قدره: ثكلتك أمُّك يا ابن الخطاب ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟! يعني ما ترى التّأثر الذي بوجه النبي ﷺ فتنبه عمر رضي الله عنه فأخبر النبي ﷺ أنه جاء بها بيضاء نقية واضحة صافية ما فيها كدر ما فيها ضلال، وأخبرهم أنّه لو كان موسى حيًّا لما وسعه إلا أن يتّبع النبي ﷺ.

ولهٰذا لاينبغي لطالب العلم أن يطّلع على ما عند أهل الباطل والضَّلال إلا عند الحاجة ولنوعيّة مخصَّصة من طلبة العلم أيضًا، وهي النّوعية التي رسخت وعرفت الحقّ واحتاجت إلى الردّ على الباطل، أمَّا أن يكون المجال مفتوحا لمن هب ودب فمعاذ الله من أن يكون هٰذا من هدي السّلف في قليل أو كثير، هدي السلف رحمهم الله البعد والتّنائي عن الباطل، هٰذا هو هديهم رضوان الله تعالى عليهم، وهو الذي ينبغي على كل مسلم أن يلزمه.

ولهٰذا نقول: ما يتعلّق بكتب التفسير أو بكتب أهل الضّلال من الجهميّة والمعتزلة وغيرهم لا يجوز الاطّلاع عليها لأي أحد، إنما يطلع عليها من تضلّع من العلم وكان لديه مقدرة على تلافي الخطر الموجود فيها، واحتاج إلى أن يردّ عليهم، فهٰذا لاشك أنّه على خير إن شاء الله تعالى كما رد أهل العلم عليهم قديما وحديثا.

أمّا أن يكون طالب العلم لديه أنواع التّفسير في مكتبته، عنده الزمخشري وعنده الرازي وعنده ابن جرير وعنده ابن كثير وعنده كلها فهذه ليست ظاهرة سليمة، إنّما يحتاج إلى جمع أنواع التّفاسير من تضلَّع من العلم فإذا رسخت في العلم وتبيّن لك الحقّ فلا إشكال في أن تطّلع على ما عند هؤلاء لأنك إذا مررت بموضع فيه تأويل للصِّفة قلت: هٰذا من الخلل، أتيت إلى موضع فيه خلل في عقيدة المؤلِّف فيما يتعلق بالقدر عرفته قلت: هذا من سوء اعتقاده، إذا أتيت إلى موضع فيه خلل فيما يتعلّق بمعنى الإيمان وحقيقته قلت: هٰذا من المواضع التي أخلَّ بها المفسِّر أو المؤلف.

أمّا أن تقرأ هكذا لا تدري الحقّ من الباطل، فهٰذا لا ينبغي وليس بتصرّف صحيح بلا شك .

نعود مرَّة أخرى إلى التَّعامل الأمثل مع كتب السَّلف رحمهم الله، والأمور التي ينبغي أن يُلمَّ طالب العلم بها ليعرف طريقة تصنيف هٰذه الكتب، هٰذه الكتب على نوعين اثنين:

إمَّا أن تكون بيانًا للاعتقاد، فيصنِّف المصنِّف رحمه الله الكتاب لأجل أن يبين اعتقاد أهل السنة في مسألة من المسائل، ويسوق عليها الأدلة، والكثير الكثير من كتب السلف يكون تعليق المصنف فيها قليلا، العادة أنه يبوِّب تبويبًا: باب كذا، أو سياق ما جاء عن النبي ﷺ في كذا، وقد يشرح بعض الكلمات أو يعلِّق على بعض الآثار والأحاديث أو الآيات تعليقا مختصرا موجزا، كما هو حال كتاب «السنة» لعبد الله ابن الإمام أحمد تجد أن كلام عبد الله فيه قليل جدًّا يبوب ويجعل النصوص تتحدث النصوص التي هي تتكلم من كلام النبي ﷺ أو من كلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وقد يوجد في بعضها شيء من التَّعليق وبيان مضمون الآثار والأحاديث مثل طريقة الإمام الآجرِّي رحمه الله تعالى في الشريعة؛ فإنه في كثير من الأحيان يعلق في بدايات

الأبواب، ثم يسوق الآثار، وفي بعض الأحيان يعلّق بعد أن تنتهي النُّصوص يتكلَّم عن مدلولها وعن ما أفادته هٰذه النقول.

النَّوع الثاني من الكتب: كتبٌ صنِّفت للردِّ علىٰ أهل الباطل، وكثير منها يكون الغرض منه الرَّد علىٰ الجهميَّة، كثير من أهل العلم ردّ علىٰ الجهمية وهم نفاة الصفات ، أو نفاة بعضها؛ الجهمي هو من ينفي صفات الله تعالىٰ كلَّها أو بعضها، حتىٰ ولو نفىٰ بعضها فإنه معدود في تيَّار الجهمية أتباع الجهم بن صفوان.

حتىٰ إن «صحيح البخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ» آخر كتاب من كتب الصَّحيح المعروف بكتاب التوحيد في بعض النسخ (كتاب التوحيد والرد علىٰ الجهمية)؛ لأنه أراد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن يردَّ عليهم في نفيهم للصفات، هٰذه الكتب كتب السَّلف رحمهم الله كما تقدم يسوقونها بالسند، يسوقون ما فيها بالأسانيد.

وهنا ينبه طالب العلم إلىٰ أمر انتقده بعض المتأخِّرين فقالوا: إن ممَّا لُوحظ علىٰ هٰذه الكتب أنَّها تروي الصحيح والضعيف، ولم تقتصر علىٰ الصّحيح، يقول: هٰذه الكتب المصنَّفة في أمور الاعتقاد كان ينبغي أن تفرد للصَّحيح فقط دون الضّعيف **وهٰذا الكلام في الحقيقة كلام غير دقيق لعدَّة اعتبارات:**

الاعتبار الأوَّل: ما ذكره أهل العلم قديمًا وحديثا أن طريقة المصنِّفين قديما رحمهم الله أنهم إذا ساقوا السند رأوا أنهم قد برئت عهدتهم، فإذا ساق السند إلىٰ النبي ﷺ وكان في السند رجل ضعيف فإنه يقول: ليس من شأني أن أتحدَّث عن الصَّحيح والضَّعيف في كل سند؛ لأن هٰذه الكتب في بعض الأحياء تكون فيها الأسانيد بالألوف لا بالمئات، فلو أراد أن يحكم علىٰ كلِّ سند لكانت أضعاف أضعاف حجمها الآن، وكانوا يحرصون علىٰ أن يسهل اقتناء الكتاب وأن يكون مرجعًا في بابه، فكان من الأمور المعروفة عند أهل العلم بلا أدنىٰ نكير أن من ساق السند فقد برئت عهدته، ويقول: عليك يا قارئ الكتاب إذا مر بك في السند عطية العوفي أو ابن لهيعة أو شريك أو غيره من أهل العلم رحمهم الله الذين في أحاديثهم شيء من الضّعف يقول: عليك أن تعرف أنت، أنا سقت السَّند لك، ولم أقل لك كما قال البخاري سمىٰ كتابه «الجامع الصحيح المختصر من أحاديث رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه» فهو يقول: أنا ألتزم لك الصَّحيح، أما الذي لم يلتزم الصحيح فإنه لا يلام، وإنما يقول: أنا أسوق لك ما في الباب، فإذا سقت ما في الباب من النصوص فلا عهدة علي، هٰذه هي طريقتهم رحمهم الله، وقد نبَّه ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابه «التَّاريخ» مع أن التاريخ – كما تعلم– يحوي شيئًا من سيرة النبيّ ﷺ ويحوي شيئا من سير الصَّحابة ويحوي أخبارًا أيضًا مطلقة عن بني أميَّة عن بني العباس نبه في أوّل كتابه أن علىٰ من يطالع هذا الكتاب إن رأىٰ فيه ما يستشنعه أن يعلم أن العهدة ليست مني، وإنَّما أتىٰ الدَّاء من بعض من نقلنا عنه؛ يعني بالسند، نبه علىٰ هٰذا في بداية الكتاب، حتىٰ يعلم قارئ الكتاب أن عليه أن يمحِّص الأسانيد.

فإذا أتينا إلىٰ الوقت هٰذا وهو الذي قلت معرفة النّاس لتمييز الرُّواة، وأرادوا أن يحاكموا تلك الكتب، قالوا: لماذا يوردون الضعيف؟عرفنا أنهم يحاكمون هٰذه الكتب إلىٰ غير الموازين التي كانت في ذلك الوقت، وهٰذا خطأ، ما تحاكمهم إلىٰ موازينك أنت، موازيننا أضعف وأقل علميَّة، حتىٰ إن بعض أهل العلم رحمهم الله لما اختلف اثنان من كبار المحدِّثين بين رجلين، قال أحدها: هو عمرو بن **فلان** هٰذا نسيته الآن

هو عمر بن فلان، قال المحدث الآخر: لا، هما اثنان؛ عمرو غير عمر، فلما تحاكما إلىٰ الشِّيرازي إن لم أكن واهمًا قال: من هٰذا الطبل الذي لا يفرق بين عمرو وعمر ، عمر هو فلان وكنيته كذا وعمرو هٰذا فلان وكنيته كذا وهٰذا من موطن كذا وهٰذا من موطن كذا، لدقة علمهم بالرِّجال فرأىٰ أن الذي لا يعرفه طبلًا، لا يفهم يعني.

ولهٰذا ينبغي أن يكون الإنسان إذا أراد أن يحاكم هٰذه الكتب أن يحاكمها إلىٰ موازينها، لا أن يحاكمها إلىٰ موازينه هو، فهٰذا من الأمور التي ينبغي أن يعرفها طالب العلم حين ساقوها بالسَّند أخلوا عهدتهم رحمهم الله، وعلىٰ طالب العلم أن يفحص السند، وبحمد لله الكثير من الكتب حققت واجتهد فيها المحققون وميزوا الكثير الكثير مما فيها من الصَّحيح والضَّعيف، فصار من السهل أن تميز ضعافها من صحاحها.

هٰذا أول ما يقال في سبب سوقهم للآثار أو الأحاديث الضعيفة.

الأمر الثاني الذي يجاب به عن سوقهم للأحاديث الضَّعيفة، أن يقال: بعض الأسانيد ضعفها يسير يمكن أن ينجبر، فمثلًا إذا وُجد في السند شريك -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- القاضي المعروف، فإنه لو توبع من قِبل راو آخر لتقوَّىٰ واعتضد السند، فهٰذا المحدث رَحِمَهُ اللهُ حين يسوق السند عن شريك يقول: لعل غيري وقف علىٰ طريق آخر من غير طريق شريك، إذا ضمَّ طريق شريك إلىٰ ذاك الطَّريق الآخر انجبر فكان مترقِّيا إلىٰ الحسن لغيره، وهٰذا أمر معروف، فكيف يُلام علىٰ هٰذا؛ بل هو مشكور، ويُدعىٰ له، أنت تعرف أن بعض الأحاديث تصح أو تحسن بمثل هٰذا الأسلوب؛ أن يقال: رواه الطبراني من طريق شريك، وتابعه علىٰ هٰذه الرواية الآجرِّي مثلا، فانضم سند الطبراني إلىٰ سند الآجري فترقىٰ إلىٰ الحسن لغيره، وهٰذا مكسب ومطلب ولهٰذا مجرد سوق الأحاديث الضعيفة ليس عيبًا؛ لأنه يسوقه بسنده ولم يقف إلا عليه، فربَّما انجبر إذا كان الضَّعف يسيرا.

أمرٌ آخر بعض الرُّواة اختلف أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ في تضعيفهم من تصحيحهم، ومنهم شريك ومنهم ابن لهيعة، فأحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ مثلا طوال تحقيقه لمسند أحمد يصحِّح أي سند لشريك يرىٰ أن رواية شريك مستقيمة، ويستدلُّ بأن بعض المحدثين من المتقدمين يرون أن رواية شريك مستقيمة، فإذا روىٰ الرّاوي من أهل العلم عن شريك أو غيره كابن لهيعة وهو يعتقد أن السند إليه سليم صحيح، وأن السَّند الذي فيه شريك أو ابن لهيعة لا ينزل عن درجة الحسن، فإنّه لا يلام؛ لأنّك إن قلت: إن هٰذا ضعيف، فإنه يقول: هٰذا ضعيف عندك، أما عندي فهو صحيح أو حسن، وأنت تعرف أن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «تفسيره» يصحح أو يحسن الأحاديث التي فيها ابن لهيعة؛ لأنه يرىٰ أن حديث ابن لهيعة لا ينزل عن درجة الحسن وأنه ثابت، وإن كان ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ليس من شأنه أن يروي بالسَّند؛ لكن أوردته علىٰ سبيل المثال.

هٰذا ما يتعلق بطريقة التَّعامل مع هٰذه الكتب، ونقد من نقد المصنِّفين لإيرادهم أسانيد فيها ضعف.

تبقىٰ مسألة وهي ممّا نقدها بعضهم وهي مسألة الأحاديث الموضوعة التي قد توجد في هٰذه الكتب أو غيرها، أنتم تعلمون أن الحديث الموضوع الأصل أن لا يُذكر إلّا مقرونًا ببيان أنّه لا يثبت، فلا شكَّ أن

الأولىٰ والأحسن أن يقال في كل حديث لا يثبت: إنه موضوع حتىٰ يحذره القارئ؛ ولكن نعود إلىٰ نفس النُّقطة الأولىٰ يرون أن من روىٰ السند وفيه رجل وضّاع، والرَّجل الوضَّاع يلوح في السَّند واضحًا فإنه يقول أيضا: هٰذا السَّند فيه رجل وضَّاع فالعهدة عليك أنت، لم تعرف أنه وضاع؟ ولم تتعامل مع كتب لا تعرف طريقة مصنِّفيها، يقول: أنا أعرف أنه وضاع وأعرف أنه يكذب؛ لكني ذكرته مجرد أن أذكر اسمه يكفي، وهٰذه وجهة بعض المصنِّفين، أنه لا يرىٰ الحاجة إلىٰ التنبيه علىٰ الحديث الموضوع، حتىٰ يقول: لأن قولي هو حديث موضوع يساوي تمامًا أن أقول إنه مروي من طريق محمد بن سعيد المصلوب، محمد بن سعيد المصلوب صُلب علىٰ الزندقة كذَّاب يكذب في الأحاديث يقول: مجرد وجود اسمه في السند يكفي، فلابد أن يكون القارئ مطلعا علىٰ الكتاب الذي يتعامل معه، فكان منهم من يرىٰ أن سياقه للسند وفيه محمد بن سعيد المصلوب مثلا يساوي تماما أن يقول: إن هٰذا حديث مكذوب؛ لأن فيه هٰذا الرواي الوضاع أو عبد الكريم بن أبي العوجاء أو نوح الجامع يقول: يكفي؛ هؤلاء يعرف صغار طلاب العلم بالحديث أنهم من الوضاعين، فمجرد أن أورد اسمه يكفي حتىٰ يعرف قارئ الكتاب أنه لا يثبت حديثٌ فيه هٰذا الراوي .

آخر مسألة أيضا تتعلق بكتب السلف رحمهم الله تعالىٰ هي مسألة إيراد الإسرائيليَّات إيراد بعض الأخبار الإسرائيلية فينقلون أن موسىٰ عليه السلام قال كذا أو أن عيسىٰ عليه السلام قال كذا، والحق أن هٰذا عنه جواب أيضا، وجواب مستقيم -إن شاء الله- وهو أنَّه يدخل في عموم حديث «حدِّثوا عن بني إسرائيل»، فإن قوله ﷺ: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» أخذ منه أهل العلم جواز التَّحديث بأمرين:

الأمر الأول: ما علمنا أنّه صحيح ثابت، كالأخبار التي فيها النَّص علىٰ اسم نبي الله محمد ﷺ يقولون: فأي غضاضة أي إشكال أن يروي كعب الأحبار أن محمَّدًا ﷺ مذكور باسمه في التوراة وأن موطنه مكة وأن مهاجره المدينة، يقول: هٰذا حق، ما في هٰذا إشكال فأي غضاضة في أن يقال هٰذا، ثم إنّا لا نأخذ هٰذه النصوص من كتب أهل الكتاب علىٰ سبيل الاعتضاد والاعتماد عليها، وإنما نقول: ما قبلها من النصوص من القرآن ومن السنة ومن كلام السلف رحمهم الله قد بين المعتقد الحق، وأراد المصنف أن ينقل قولًا عن أهل الكتاب متّفقًا مع ما تقدَّم ما فيه أدنىٰ معارضة له، فيرون أنه داخل في عموم هٰذا الحديث.

الأمر الثاني الذي يتناوله قوله: «حدِّثوا عن بني إسرائيل» قالوا: إنه يجوز التحديث عنهم بالتفاصيل التي ذكرت بعض الأحداث عن الأنبياء -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أو عن غيرهم وليس فيها شيء باطل؛ لأن الشَّيء الباطل لا يجوز اعتقاده، ولهٰذا تجد أن الكثير من أهل العلم رحمهم الله يوردون في موضوع أهل الكهف، أو في موضوع آدم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، أو في موضوع نوح، أو في موضوع موسىٰ عليهم جميعا الصلاة والسلام، يوردون أخبارا مطولة عن بني إسرائيل سواء في كتب التفسير أو غيرها، يقولون: لا حرج بنص الحديث، إنما الإشكال إذا روي شيء فيه مصادمة ومخالفة للنصوص، أما أن يروىٰ ما لا مخالفة ولا معارضة فيه، فلا غضاضة ما في هٰذا إشكال، فالإسرائيليات الخطأ أن يُروىٰ الباطل الموجود فيها، فإن قلت فأين حديث النبي ﷺ الذي ذكرته قبل قليل؟ وهو عن عمر رضي الله عنه فمن أهل العلم من أجاب بأن هٰذا كان في بداية الأمر، ثم لمّا استقر الحال وتبيَّن قيل: «حدِّثوا عن بني إسرائيل»، فلا يكون فيه إشكال

في أن يحدث عنهم أحد عالم بما يحدث، ليس لأي أحد أن يفتح التوراة ويبدأ يقرأ فيها؛ لأنه قد ينقل الباطل وهو لا يشعر وإنما ينقلها من يستطيع أن يفرق بين الحق من الباطل، ثم إن هٰذا لا يكون بين عموم المسلمين كأن يقال في خطب جمعة ويجمع الناس عليه، لكن في مصنف علمي يورد الآيات ويورد الأحاديث ثم يورد شيئا يتعلق ببني إسرائيل، يدل علىٰ إثبات أمر ثابت في الشرع، ما يرون في هٰذا غضاضة؛ لأن هٰذا المصنف ليس للعامة، وإنما هو لأهل العلم الذين يستطيعون التمييز بين الصحيح من الضعيف، ويستطيعون أن يوقعوا هٰذا الخبر الوارد عن أهل الكتاب في الموقع الصحيح أنه يساق للاعتضاد لا للاعتماد؛ يعني يُعتضد به، يستشهد به، يستأنس به، أما أن يُعتمد لا يقال: الدَّليل علىٰ إثبات صفة من صفات الله ما في التَّوراة، ليست هٰذه محل دليل أصلا، وليست موضع من مواضع التلقي، وإنَّما الدليل من القرآن أو من السنة، فإذا أوردت عشرين آية ومائة حديث ومثلها عن السَّلف من الآثار، ثم أوردت من التوراة في كتاب علمي يتناوله طلبة العلم أوردت هٰذا النقل اعتضادًا واستئناسًا حتىٰ تقول: إن هٰذا ممَّا اتفق فيه نص التوراة مع نص القرآن، وليس بين العامَّة بأن يُفشىٰ وإنما في كتاب علمي لا إشكال في هٰذا.

وهٰذا هو السبب في سوقهم رحمهم الله تعالىٰ مثل هٰذه النقول فالحاصل أن التعامل مع كتب السلف رحمهم الله ينبغي أن يكون عند الجميع؛ ولكن وفق ما ذكرنا من هٰذه الأُسس التي ينبغي أن يحيط بها طالب العلم وأن يلمَّ بها حتىٰ يكون علىٰ بصيرة.

بذلك ننتهي من موضوع كتب السَّلف رحمهم الله وما فيها، ولعلنا -إن شاء الله تعالىٰ- عند ذكر بعض المسائل الكبرىٰ التي لعلها أن تُشرح إن شاء الله، عند ذكرها وشرحها وبيانها نذكر أهم الكتب المصنفة فيها:

كأن نسوق موضوع الإيمان فننبه طالب العلم إلىٰ المراجع المهمة في مسألة الإيمان.

قد نذكر إن شاء الله تعالىٰ مسألة القدر وتفصيلها، ثم ننبِّه طالب العلم أيضًا إلىٰ المراجع التي للسَّلف ولأهل العلم رحمهم الله تعالىٰ في موضوع القدر.

وهكذا حتّىٰ يكون لطالب العلم -إن شاء الله تعالىٰ- إلمامٌ بالمسائل مع المراجع؛ لأن كون الشخص يعرف المسألة ثم لا يستطيع أن يحيل ولا أن يرجع إلىٰ مرجع يُشعر بشيء من النقص، معناه أنه لو طلب منه أن يكتب بحثًا ما استطاع، هذا معناه، لو قيل: اكتب لنا بحثا في الحوض الذي يكون للنبي ﷺ ما عرف، وهٰذا فيه قصور في الحقيقة، ينبغي أن تعرف المراجع التي يمكن أن يستمدَّ منها النصوص والنقول، وهٰذا ما سنحاول إن شاء الله علىٰ ضيق الوقت أن نزوّد به إن شاء الله بين فترة وأخرىٰ.

المسألة التي سنطرح اليوم إن شاء الله تعالىٰ وقد تستغرق بقية هٰذا الوقت وربما شيئا من يوم غد إن شاء الله تعالىٰ وهي مسألة كبيرة جدًّا، وهو ما يمكن أن نسميه بالفرق المنهجي بين أهل السنة وبين جميع أهل الأهواء.

هناك فروق بين أهل السُّنَّة مثلا والخوارج في صاحب الكبيرة، هناك فروق بين أهل السنة والرَّافضة مثلا في الصَّحابة رضي الله عنهم وفي مسائل أخرىٰ في الحقيقة، في الصَّحابة وفي القرآن وفي مسائل كثيرة؛لأن الصحابة

شأنهم كما قلنا يختلف عن بقية الفرق.

نقول: بين أهل السنة وبين المعتزلة فرق في المسائل الآتية: في القدر، في الإيمان، وهكذا.

فما الفرق المنهجي الذي ميَّز أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ عن جميع أهل الأهواء بدون استثناء؛ أصحاب البدع الكبار وأصحاب البدع الصِّغار؟

الفرق المنهجي هٰذا يعود إلىٰ النَّص، وطريقة التَّعامل مع النص، كيف يتعامل أهل السنة مع النص وكيف يتعامل أهل الأهواء مع النص؟

هٰذا هو الفرق الأكبر وهو السَّبب الذي لأجله تفرَّقت الفرق وتشيَّعت الشيع، فإن أهل السنة رحمهم الله يتعاملون مع النص التعامل الواجب الذي دلَّ عليه القرآن والسنة وعمل الصّحابة رضي الله عنهم، أمّا أهل الأهواء فيتعاملون مع النص تعاملًا علىٰ خلاف ما أمر الله به وخلاف ما أمر به الرسول ﷺ وعلىٰ خلاف ما كان عليه السّلف الصّالح رحمة الله تعالىٰ عليهم.

أهل السنة طريقتهم مع النص علىٰ النحو الآتي :

أولا أن يجعل النص هو الأصل وعليه المعوَّل وإليه المرجع، فأهل السنة النَّص عندهم هو الأساس، ونعني بالنَّص كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فإن وجدوا في النَّص إثبات أمر أثبتوه، وإن وجدوا في النَّص نفي شيء نفوه، وإن وجدوا النُّصوص سكتت سكتوا هم كما سكتت النُّصوص؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾[الحجرات]، إذا لم يتكلم رب العالمين في هٰذا الأمر فلا تتكلم أنت، لم يتكلم الرسول ﷺ فكذلك أنت ما تقول: أنا سأتكلم فيما لم يتكلم فيه الله ولا رسوله ﷺ، سبحان الله أين وصلت بنفسك؟! جاء في الحديث أن «الله عز وجل سكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان» يعني ما ذهل الرَّب سبحانه ولا نسي سبحانه عن ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾[مريم] «وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » لا تخوضوا فيها ما دام أنَّها لم تأت بها النُّصوص، هٰذه هي طريقة أهل السنة رحمهم الله.

فإذا قيل: لأهل السُّنة هل تقرون كذا؟ قالوا: إن كان في النصوص أقررناه، وإن نفته النصوص نفيناه، وإن لم تتكلَّم فيه النصوص لم نتكلم فيه.

نلخِّص إذن منهج أهل السنة هو: جعل النص في المقدِّمة -كما يقول ابن تيمية- منه يتعلَّمون وفيه يتفكرون وينظرون وبه يستدلُّون، فتركيزهم علىٰ النص؛ الاستدلال بالنص، التفكر في النص، والاستدلال به، ولهٰذا إذا وُجد قول لا دليل عليه تجد أن أهل السُّنة يقولون: هٰذا القول لا أصل له.

طيِّب قد يقوله عالم من العلماء، يقولون: هٰذا العالم عليه أن يورد مستنده فإذا أورد الدَّليل قُبل قوله، أما إذا أورد شيئًا بلا دليل فإنَّ الدَّليل ما في الكتاب والسنة وليس كلام النَّاس دليلا ، كلام الناس يحتاج إلىٰ دليل ، وليس كلام الناس هو الدليل، وهٰذا معنىٰ قول ابن القيم رحمه الله لما عقَّب علىٰ أبي إسماعيل الهروي: أبو إسماعيل حبيبٌ إلينا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه؛ لأنه يقول في هٰذا الكتاب أقوالًا ليس عليها دليل أو تكون مخالفة للدليل فينتقده ابن القيم، يقول هٰذا بخلاف الدليل كقوله في مرتبة الرجاء: الرجاء أضعف منازل

المريدين. كما عبَّر ، وهٰذا غير صحيح، الرَّجاء من المقامات العالية العظيمة، فكيف يقال فيه: إنه أضعف المقامات. فعندها قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أبو إسماعيل حبيب إلينا والحقُّ أحب إلينا منه؛ لأن هٰذا القول بخلاف الدليل فيطَّرح.

وهذا معنىٰ قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إذا قلت قولا وقال النبي ﷺ قولا بخلافه فخذوا بقول النبي ﷺ واضربوا بقولي عرض الحائط، وكذلك قال أبو حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله جميعا، لأنه لا يُقدَّم علىٰ كلام الله ﷺ شيئا، وإذا اجتهد العالم في أمر فأخطأ فإن خطأه لا يقدم علىٰ الدليل، وإنما يُعتذر ويُترحَّم عليه ويقال: أراد خيرًا واجتهد هٰذا الاجتهاد؛ لكن الدليل بخلافه؛ لأن الأمر كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ليس أحد يستطيع أن يلمَّ بسنة النبي ﷺ كلِّها، لابدَّ أن يفوته منها شيء، يقول: ولكن الذي يفوته يوجد عند غيره. يعني ما تضيع السُّنة، إذا فات علىٰ هٰذا العالم شيء تجد أن غيره قد حفظه، بحيث أن السنة محفوظة، يقول: ولهٰذا لا يعتمد علىٰ قول النَّاس، وإنما الأصل هو النصوص، وهٰذه هي طريقة أهل السنة.

طريقة أهل السنة هكذا في الاعتقاد.

وفي الأحكام العملية أيضا في مسائل الفقه طريقتهم رحمهم الله تعالىٰ أنَّهم يبحثون عن النَّص، ويجعلونه المعوَّل والأصل.

هٰذه هي الطريقة، ولهٰذا قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تأويل مختلف الحديث»: أصحاب الحديث -يعني أهل السُّنة- التمسوا الحقَّ من وجهته وتتبَّعوه من مظانه.

التمسوا الحق من الوجهة التي ينبغي أن يُلتمس منها، ومن الموضع الذي يوجد به وهو الدَّليل، هٰذه هي طريقة أهل السنة كما ذكر هٰذا في صفحة (٥١).

أنا أحرص تزويد الأخوة بالصفحات وبالمراجع حتىٰ يكون للدَّورة التأصيليَّة شيئا من الفائدة؛ يعني إذا خرجت وعندك مجموعة من المواضع في «الفتاوىٰ» وفي «الشريعة» للآجري وفي «البخاري» وفي «فتح الباري» وفي «تأويل مختلف الحديث» وفي«شرف أصحاب الحديث» مجموعة من المواضع يكون لدىٰ طالب العلم جملة من المراجع المفيدة النافعة التي يمكن أن يسلك علىٰ أثرها بحيث يستطيع أن يبحث المسائل، يستطيع أنه يبحث هٰذه المسائل، ولا يكون متلقِّيا دائما، التلقِّي أمر مهمٌّ جدًّا ولابدَّ منه، ولكن ينبغي تعويد طالب العلم أن يبحث وأن يحسن التَّعامل مع المرجع.

وقال الخطيب البغدادي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «شرف أصحاب الحديث» صفحة (٢٨) يقول: كل فئة تتحيَّز إلىٰ هوىٰ ترجع إليه -يعني من فئات أهل الباطل والضَّلال- أو تستحسن رأيًا تعكف عليه سوىٰ أهل الحديث؛ -يعني أهل السنة- فإن الكتاب عدَّتهم والسنة حجتهم، والرَّسول ﷺ فئتهم وإليه نسبتهم -يعني ينتسبون إلىٰ النبي ﷺ- هٰذه نسبة أهل السنة أنهم تعود مقالاتهم إلىٰ النبي -صلوات الله وسلامه عليه- وبه تعرف أنَّ لأهل السنَّة -رحمهم الله تعالىٰ- في بناء المذهب مرحلتين اثنتين:

المرحلة الأولىٰ: تنطلق من النَّص نفسه بأن يرجعوا إلىٰ النَّص الموجود في المسألة سواء أكانت مسألة عقدية أو مسألة من الأحكام العملية في العبادات أو من الأحكام العملية في المعاملات يبحثون عن النص

أولا.

المرحلة الثَّانية: بناء القول علىٰ النَّص يبنون القول علىٰ النَّص فالأمور لديهم رحمهم الله مرتَّبة، يعني لديهم ضبط لما يُسمىٰ بالأولويَّات، ما هو الأوَّل عندهم؟ الأول النص، ثم بعد ذلك تكون الفتوىٰ ويكون القول مترتبا علىٰ النص، ولهٰذا فإن الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ كما روىٰ حنبل في «المحنة» في صفحة (٥١) لأنه روىٰ ما وقع للإمام أحمد من المحنة مع المعتزلة، وما نوقش به رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ وما حصل له في السجن، وما حصل له في المناقشة عند المعتصم إلىٰ أن خرج من سجنه رَحِمَهُ اللهُ، ناقش الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قاضي الاعتزال والتَّجهم أحمد بن أبي دؤاد، فقال له في مقولته العظيمة وفريته الكبيرة في القرآن قال له الإمام أحمد: هل معك في هٰذا كتاب أو سنة؟ يعني عندك دليل من القرآن أو السنة؛ فقال ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا بما في القرآن والسنة؟ فتعجب الإمام أحمد من جواب هٰذا الرجل قال: وهل يقوم الإسلام إلا بالكتاب والسنة، من أين نأتي بالاعتقاد؟ من أين نأتي بالأمور إلا من القرآن والسنة، نعم لا أقول إلا بما فيهما، وهل يقوم الإسلام إلا بالقرآن والسنة، فكان هٰذا جواب يمثِّل منهج السّلف، وذاك جواب يمثِّل منهج أهل البدع كما سيأتي.

ولهٰذا قال أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتاب له مفقود اسمه «الإنتصار لأهل الحديث» هٰذا الكتاب ساق منه السُّيوطي في «صون المنطق» بعض كلام أبي المظفَّر ونقل طائفة منه عن أبي المظفَّر قِوام السنة الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ في كتابه القيم «الحجَّة في بيان المحجة» يقول أبو المظفر رَحِمَهُ اللهُ كلاما مختصره: أهل السنة جعلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلهما –من جهة الكتاب والسنة– وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه علىٰ الكتاب والسنة. يعني قد يأتي لطالب العلم بعض الأحيان استنباط معيَّن أو خاطرة معيّنة أو يصل إلىٰ قول معيّن، هٰذا القول وهٰذه الخاطرة ماذا يفعل بها؟ يأتي بها ليعرضها هي علىٰ القرآن وعلىٰ السنة، فإن وافق القرآن والسنة هٰذا الأمر قبلوه وحمدوا الله أن وفَّقهم عليه، وإلا –يعني إذا عارض– تركوه وأقبوا علىٰ الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة علىٰ أنفسهم، وقالوا: نحن مخطئون، استنباطي هٰذا هو الخاطئ؛ لأني لما عرضته علىٰ القرآن صار بخلافه فدل علىٰ أن ما قلته خطأ؛ لأن القرآن لا يمكن أن يكون خطأ فقولي هو الخطأ وظني هو البعيد عن الصواب وكلام الله هو الحق وكلام رسوله ﷺ كذلك.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «الفتاوىٰ» في (مج١٣/ ص١٣٥–١٣٦) كلاما ملخّصه: جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال أن يُجعل ما بعث الله به رسله هو الحق، –يكون هٰذا هو الأساس، وهذا هو الأصل– الذي يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدىٰ والعلم وما سواه من كلام النّاس يُعرض عليه فإن وافقه فهو حقّ وإن خالفه فهو باطل.

هٰذه هي طريقة أهل العلم أن الذي يميز ويفرِّق بين الحقِّ والباطل أن يجعل النص هو الأساس وهو الأصل، فإذا قيل: قال فلان، قلنا: هات قول فلان اعرضه علىٰ الفرقان، اعرضه علىٰ السنة إن شهد القرآن وشهدت السنة صار قوله سليما، وإن رده القرآن أو السنة صار قوله باطلا، وبقي القرآن والسنة ثابتا لا يجوز التعرض لهما، بحيث يرجع الإنسان علىٰ قوله بالخطأ، بعض الأحيان تستنبط مسألة أو يعنُّ لك أمر،

فيقال لك: لا، ثبت عن النبي ﷺ خلاف ما قلت، فتقول: هاتوا الذي ثبت عن النبي ﷺ وأنا أتنازل. فإذا قيل لك: هٰذا الحديث ثابت بخلاف قولك، ما تقول؟ تقول: لا قول لي، انتهىٰ قولي، انتهيت من القول نهائيا، أنا كنت أقول قبل أن أعرف أن ثمَّة نصًّا.

ولهٰذا قال رجل للشَّافعي رَحِمَهُ الله تعالىٰ سأله عن هٰذه المسألة ، قال فيها رسول الله كذا وكذا أفتىٰ بالحديث مباشرة، فقال الرَّجل: فما تقول أنت؟ فغضب غضبا شديدا قال: سبحان الله أتراني خرجت من كنيسة -يعني هل أنا نصراني- أتراني خرجت من بيعة -هل أنا يهودي-، أتراني علىٰ وسطي زُنَّارة -الذي كان يشده أهل الذمة- أقول لك: قال رسول الله، وتقول: ما قولك؟، انتهىٰ ليس لي قول، خلاص، ما دام أن في المسألة نصا فلا يقال في الناس ما قولك، إنما القول ما في النص.

ونختم بقول ابن تيميَّة رَحِمَهُ الله تعالىٰ في «الفتاوىٰ» (مج ١٣/ ص ٦٣) حين بين أن هٰذا الذي ذكرته الآن من جعل النص هو الأصل هٰذا هو مسلك الصَّحابة والتَّابعين، لم يكن فيهم من يعارض النصوص بمعقوله، يقول: هٰذا القول الذي ترويه عن النبي ﷺ ما يقبله عقلي، ما كان فيه أحد يقول هٰذا الكلام؛ يعارض النص بمعقوله، وإذا أراد معرفة شيء من الدِّين مسألة من المسائل، أراد أن يعرف حكمها، نظر فيما قاله الله ورسوله فمنه يتعلّم وبه يتكلّم وفيه ينظر وبه يستدل.

لأن هٰذا هو الأصل النص هو الأصل.

ولهٰذا حصلت فتنة زمن الإمام عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ الله تعالىٰ الإمام مشهور وكان من مشاهير الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر، وكان قويًّا في الله رَحِمَهُ الله تعالىٰ، وغيَّر منكرات كثيرة في بلده فتألَّب عليه مجموعة من علماء السوء وأهل البدع، وأرادوا أن يوقعوا به مكيدة، قالوا: اكتب اعتقادك حتىٰ يرفعوها للسُّلطان المسمىٰ الملك الكامل الذي استمرَّ حكمه أربعين سنة، واشتهر بقتال الصَّليبيين برًّا وبحرا، كأنهم يريدون منه أن يكتب أساس المعتقد؛ يعني اشرح لي عقيدتك، حتَّىٰ يأخذوها للسلطان يقولون هو مشبه هو من المرجئة أوالخوارج، فكتب عبد الغني رَحِمَهُ الله تعالىٰ عقيدةً قال فيها: أقول كذا لقول الله كذا، وأقول كذا لقول النَّبي ﷺ كذا، صار يقول عقيدة ويورد بعدها آية، ويورد المعتقد ويورد بعده الحديث، فلما رفعوه للسُّلطان وقرأ، وكان القوم يريدون أن يعاقبه السلطان بالسجن، قال: أيش أقول في هٰذا ؟ -أيش كلمة عربية فصيحة معناها أي شيء منحوتة-يقول بقول الله وقول رسوله، لا أستطيع أعاقب إنسان ، كيف أعاقب إنسانا يقول بقول الله وقول رسوله ﷺ، لا أستطيع أن أعاقب مثل هٰذا.

هٰذا هو مسلك أهل السنة رحمهم الله، هذا موجود خبر المقدسي في «سير الأعلام النبلاء» (مج٢١/ ص٤٦٣).

في يوم غد بإذن الله سنتحدَّث عن المنهج المعاكس، وهو منهج أهل الأهواء، نبيِّن من خلاله أنهم خالفوا أهل السنة في المرتبتين -المرحلة الأولىٰ مرحلة النص، ثم مرحلة بناء القول، سنجد أنهم خالفوا أهل السنة في هٰذا إن شاء الله.

۞۞۞۞

[الدرس الثالث]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعدُ..

فكنت قُلت بالأمس إنَّ الإخوة الذين يسألون عن شرح العقيدة الطَّحاوية تحقَّقنا من الموقع الذي يوجد عليه الشَّرح موقع يسمَّىٰ (البث الإسلامي) فهٰذا تجد عليه –إن شاء الله– شرح الطَّحاوية بدأ من الدرس الثاني إلىٰ نهاية الدروس .

تكلمنا بالأمس عن مسلك أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ مع النُّصوص، وقلنا: إنَّ هٰذا المسلك لأهل السُّنة هو الأمر الذي فارقوا به جميع الطَّوائف بدون استثناء، كما سيأتي –إن شاء الله– أنه يختلف معهم في هٰذه البدع جميعًا؛ لأنَّ الإنسان إن كان صاحب بدعة فإنَّه لم يكن ذا بدعة عقدية إلَّا لأنَّه خالف النَّص، فترك شيئًا من النُّصوص بسبب هوىٰ من الأهواء، ولهٰذا أيضًا يسمَّون أهل الأهواء، وهم عند السَّلف الذين يقدِّمون أهواءهم علىٰ النصوص.

قلنا: إنَّ الفرق المنهجي هٰذا أساسه الكبير أن بين أهل السنة وهٰذه الطوائف جميعًا اختلافًا في البدء.

نقطة البدء والانطلاق عند أهل السنة هي النص، وبعد ذلك يبنون الأقوال، أمَّا من سواهم فإنهم يأتون مُشْبَعين بأقوال مسبقة يريدون أن ينصروا أهواء مسبقة، فإذا قرؤوا القرآن وإذا بأهوائهم قد سبقتهم فيجد هٰذه الآية تخالف هواه؛ فلأنَّ هواه مقدَّم علىٰ النّص يبدأ في تغيير معنىٰ النَّص حتىٰ يثبت له هواه.

مثال: الرَّافضي الذي يشتُم أصحاب النَّبي ﷺ إذا قرأ القرآن وجد في القرآن آيات كثيرة فيها الثَّناء علىٰ الصّحابة رضي الله عنهم، لماذا لا يترك قوله الباطل؟ لأنه أتىٰ مشبعًا قبل أن يقرأ النص؛ يقول في الصحابة ما لا يليق، فإذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠]، آية صريحة في أنَّ الله رضي عنهم وأنهم رضوا عنه تعالىٰ، والآية الأخرىٰ العظيمة ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الحديد:١٠]، نصوص واضحة صريحة بأنّ الله وعدهم كلّهم الحسنىٰ، وقوله سبحانه وبحمده: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾[الفتح:٢٩] أنَّ الذي يغتاظ منهم عادة هم غير المسلمين، آيات صريحة جدًّا، وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ ماذا يريدون؟﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[الحشر] ، في الآية الأولىٰ بيَّن أن المهاجرين هم الصَّادقون، وفي الثانية بين أن الأنصار مفلحون، ما الذي يجعل الرَّافضي لا يتوب ويترك قوله الباطل في الصّحابة؟ أنَّه أتىٰ

لا ليستدل بالقرآن علىٰ الحقّ، وليقول أين طريق الحق في كتاب الله. وإنَّما أتىٰ وهو -والعياذ بالله- قد امتلأ قلبه بالحِقد علىٰ خيار هٰذه الأمَّة؛ أبي بكر وعمر وعثمان وبقية العشرة والمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، قلبه مليء بالحقد، فمهما قرأ من هٰذه الآيات لا يستفيد -عياذًا بالله- لماذا؟ لأنّه قد أشبع قلبه مُسبقًا بالقول السَّيِّئ في الصحابة، فمهما قرأ من الآيات فإنه لا ينتفع بها، وهٰذا مثل ما قلنا: الفرق الكبير بين أهل السنة وبين أهل الأهواء، أهل السنة لما رأوا النصوص في الصَّحابة مثل ما قرأنا ونصوصًا أخرىٰ علىٰ هٰذا النحو أخذوا أن الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم عدول بشهادة الله لهم وكفىٰ بالله شهيدا، فإذا قيل لهم: ما تقولون في الصَّحابة ؟ قالوا: نقول في الصحابة ما في القرآن، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[الحديد:١٠] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾[الحشر]، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾[الحشر]، هٰذا الذي وجدناه في القرآن، فإذا وجدنا هٰذا في القرآن قلنا به، ولهٰذا صار أهل السنة لا يأخذون إلا ممّا في القرآن كما تقدم والحديث الصَّحيح الثَّابت أو الحسن.

أما أهل الأهواء فمثل ما قلنا يأتي الواحد مشبع مسبقا، وهو الذي يسميه الناس في لغة العصر يسمونه المقرَّرات السَّابقة، يعني يكون عند الإنسان قناعات سابقة ثم ينظر في القرآن وفي السُّنة، فالذي يجده يوافق هواه يقول: هٰذا صواب، والذي يجده بضد هواه يحرّف معناه، قد يسمي التحريف تأويلا أو يسميه ما يسميه، المهم أنه لا يستهدي بالقرآن.

إذن فالمرحلة الأولىٰ عند أهل الأهواء ما هي؟ بناء المعتقدات والمذاهب هٰذه هي المرحلة الأولىٰ ، ثم النظر في النصوص المرحلة الثانية ، وهٰذا الفرق الكبير جدًّا بين أهل السنة وبين أهل الأهواء؛ فإن أهل السنة -كما قدَّمنا مرارا- ينظرون في النُّصوص ثم يبنون أقوالهم علىٰ النصوص، أما أهل الأهواء فيأتون إلىٰ النصوص وقد أُشبعوا مسبقًا بأقوال واعتقادات فإن رأوا النصوص توافقها أقروا بها وأشادوا بها وأكثروا الاستدلال بها، وإن رأوا النّصوص تخالف أقوالهم بدؤوا يميلون بها يمنة أو يسرة، مثل قول الرافضة مثلا إذا قيل لهم: ما تقولون في هٰذه النصوص، نصوص صريحة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ قالوا: هٰذه قبل أن يرتدوا عياذًا بالله من هٰذه المقولة، نزلت في الصَّحابة قبل أن يرتدوا، سبحان الله، الله عالم الغيب والشهادة، لو كانوا سيرتدون لما أثنىٰ عليهم، ولما مدحهم، ولما أمر من بعدهم بأن يترضوا عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يبين المنهج ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[الحشر:١٠]، فسبحان الله ما أعجب الهوىٰ، الهوىٰ يعبث بصاحبه، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾[يونس:١٠١]، مهما تعدَّد من النُّصوص ومن الأدلَّة لا يستفيدون عياذًا بالله؛ لأنها قلوب منكوسة، ليس فيها تعظيم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ليس عند الواحد استعداد لأن يقول: هٰذا القول خطأ وكلام الله هو الصواب، أنا المخطئ واعتقادي باطل، فأترك اعتقادي الباطل لكلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ لأن الهوىٰ -والعياذ بالله- كما ورد في الحديث.

يقول ﷺ: «افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين ملَّة، وافترقت النَّصارىٰ علىٰ ثنتين وسبعين ملة وستفترق هٰذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلُّها في النَّار إلا واحداة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال:

«الجماعة» الذين لزوموا هدي الجماعة الأولىٰ؛ جماعة محمَّد ﷺ وثبتوا علىٰ ما كان عليه ﷺ، هؤلاء هم النَّاجون، وفي لفظ قال: «علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» هٰذا هو الناجي إلىٰ يوم القيامة، من لزم ذلك الهدي الأول فهو الناجي، وفي لفظ قال-وهٰذا هو الشَّاهد-: «وإنّه سيخرج من هٰذه الأمّة أقوام تتجارىٰ بهم أهواؤهم كما يتجارىٰ الكلَب» ليس الكلْب «بصاحبه، لا يذر منه عرقا ولا مفصلا إلا دخل فيه» ، شبَّه ﷺ الهوىٰ في هٰذه الطَّوائف بحال الذي أُصيب بما يسمىٰ بداء الكلَب، وهو ينشأ من عضَّة الكلب المسعور فيكون له ضرر شديد علىٰ الجسم، حتىٰ إنه ينتشر في سائر الجسم لا يبقىٰ عرق ولا مفصل إلا دخل فيه، قال فكذلك هؤلاء في هواهم ، الهوىٰ قد أُشربوه والعياذ بالله إشرابًا كما قال تعالىٰ في بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٣]، مع أنَّه هوىٰ ومع أنّه مخالف للنّصوص إلا أنّهم مصرُّون عليه، ثابتون عليه، عياذا بالله من حال أهل الضَّلال والزَّيغ.

فهٰذا هو الفرق العظيم بين أهل السنة وبين طوائف أهل الأهواء؛ أنهم يقدمون أهواءهم وآراءهم وما عندهم من قواعد مسبقة علىٰ النصوص، هنا لابد أن تصطدم هٰذه القواعد والأهواء لزامًا؛ لأن هٰذه القواعد وهٰذه النصوص ناشئة عن هوىٰ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[المؤمنون:٧١]، الحق هنا ما المراد به ؟ من أهل التفسير من قال قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الله ، ولو اتّبع الله أهواءهم لفسدت السَّمٰوات والأرض ومن فيهن.

ومنهم من قال: الحقّ المراد به الحق المعروف، لو كان الحقّ علىٰ هواهم لفسدت السَّمٰوات والأرض ومن فيهن.

ولهٰذا بيّن الله لهٰذه الأمّة مسلك أناس زمن النبي ﷺ من أهل الباطل يشبه مسلكهم مسلك أهل الأهواء، وهم الذين ينتقون في النصوص، يقولون: إن جاء النص بكذا وكذا قبلناه، أما إن لم يجئ بما نريد فإننا نرده، وهٰذا في قوله تعالىٰ عن اليهود: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾[المائدة:٤١]، انظر كيف التَّفريق في النصوص، يقول: إذا جاءت النصوص علىٰ ما تريدون وعلىٰ ما تشتهون خذوا النّص، أما إذا لم يأت علىٰ ما لم ترد فاحذره، هٰذه الآية يبينها سبب نزولها، فقد ثبت أن يهوديين زنيا وقت النبي ﷺ فقال اليهود فيما بينهم: نحتكم إلىٰ محمَّد ﷺ لأنهم يعلمون أنه نبي، قالوا: فإن أفتىٰ بتحميم وجوههم؛ يعني يؤخذ السَّواد ويسوَّد به وجه الزاني والطَّواف بهم وفضيحتهم أخذناه وقبلناه، وإن أفتىٰ بالرَّجم لم نقبله؛ لأن الرَّجم هو حكم التوراة كما أنه حكم القرآن، معنىٰ ذلك أنهم يريدون أن ينتقوا الحكم الذي يروق لهم، وهٰذا ثابت في «صحيح مسلم»، ويقول صاحب «زاد المسير» تفسير الآية بهذا هو قول جمهور المفسِّرين، فأتوا النبي ﷺ فقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٣﴾[آل عمران] فأتوا بالتَّوراة فلما قرأ القارئ التوراة وضع يده علىٰ آية الرَّجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال: «ارفع يدك» وإذا بآية الرَّجم تلوح، فقال ﷺ: «اللّهمَّ إني أول من أحيىٰ حكمك إذ غيروه» ثم أمر ﷺ بهما فرجما، فالشَّاهد قوله تعالىٰ يقولون: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يعني إن أعطاكم الشيء الذي يوافق أهواءكم فارضوا به، وإن لم تؤتوه فاحذروا، وهٰذا هو مسلك أهل الباطل في القديم وفي الحديث كما سيأتي في كلام

المفسرين الآتي إن شاء الله.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ مبينا أن القرآن منه محكم ومنه متشابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾[آل عمران:٧] ، ثم بيَّن تعالىٰ بعد أن بين أن الآيات قسمان منها المحكم ومنها المتشابه بيَّن أن النَّاس سيكونون أيضًا قسمين :

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ﴾ يبحث عن المتشابه ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ﴾ ماذا؟ ﴿ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم بيَّن تعالىٰ مسلك الرَّاسخين، فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧﴾، ثبت عن النَّبي ﷺ في البخاري ومسلم أنَّه قال بعد أن قرأ هٰذه الآية: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه فأولئك من سمَّىٰ الله فاحذروهم»، حذر -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من مسلك هؤلاء الذين يتبعون المتشابه.

ما معنىٰ المتشابه؟ وما معنىٰ المحكم؟

لأهل العلم رحمهم الله كلام مطول في معناه، منهم من يقول: المحكم هو الآيات النَّاسخة التي نسخت الأحكام، والمتشابه هو الآيات المنسوخة، فمثلًا الآيات التي يظهر فيها إباحة الخمر وعدم تحريمه التَّحريم المطلق، مثل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[النساء:٤٣]، الآية نهت عن شرب الخمر في حال الصَّلاة، ولذلك كانوا يشربونها في الأوقات الطَّويلة مثل بعد العشاء فإذا صلوا العشاء شربوها، فإذا جاء الفجر وإذ ا بهم أفاقوا لم يقربوا الصّلاة وهم سكارىٰ لا العشاء ولا الفجر، قالوا هٰذه الآية منسوخة، ولذلك هي متشابهة لا تستمسك بها؛ لأنها نسخت قالوا: فأين الآية المحكمة؟ الآية المحكمة هي قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[المائدة:٩٠]، هٰذه هي الآية المحكمة لأنها إليها مردُّ الحكم.

ومنهم من قال أقوالًا أخرىٰ؛ لكن الذي يظهر والله أعلم أنّ أقوىٰ الأقوال في معنىٰ المحكم والمتشابه وإن كان هٰذا القول سليم ما فيه إشكال؛ لكن القول الجامع أن المحكم هو الواضح البيِّن؛ النص الواضح البين الجلي هو المحكم.

أما المتشابه فهو النص الذي لا يمكن أن يُفهم إلّا إذا رُدَّ إلىٰ المحكم؛ يعني يكون فيه نوع إجمال وعدم وضوح، فلا يفهم مستقلا إلا إذا رُد إلىٰ المحكم.

فمثلا قول الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الأنعام:٣]، هٰذه الآية قال بعض أهل العلم: إنها من المتشابه، وقال بعضهم: بل الآية علىٰ هٰذا النحو من القراءة ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ قالوا هنا وقف، ثم استأنف ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي أن الله في السماء ولا يخفىٰ عليه سركم وجهركم في الأرض، وقال آخرون من أهل العلم: بل هٰذه الآية متشابهة لا يتضح معناها إلا إذا رُدت إلىٰ الآيات المبيِّنة لمعناها الدالة علىٰ أن الله تعالىٰ في العلو، مثل قوله تعالىٰ في سورة تبارك: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الملك:١٦] وفي الآية التي بعدها: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الملك:١٧]، والآية الأخرىٰ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، والآية الأخرىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ

﴿٤﴾[المعارج]، «إليه يصعد الكلم الطيِّب» والذي يكون من عند الربّ ﷻ يعبر عنه بالنزول، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾﴾[الكهف] وكذلك ثبت عن النَّبيّ ﷺ في «صحيح مسلم» أنه قال يوم حجَّة الوداع التي قيل: إن عدد من حضرها مائة ألف قال ﷺ: «وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟» يعني من جهة البلاغ فقالوا رضي الله عنهم: نشهد أنَّك قد بلغت وأدَّيت ونصحت. فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أمام ذلك الجمع الكبير: «اللَّهمَّ» يشير إلىٰ السماء ثم ينكت أصبعه ثانية «اشهد»، ثلاث مرات ، «اللَّهمَّ اشهد، اللَّهمَّ اشهد».

ولمّا أراد معاوية بن الحكم رضي الله عنه أن يعتق جاريةً قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ائتني بها ليختبرها فقال ﷺ حتّىٰ يعرف هل هي مؤمنة حتىٰ تعتق أو ليست بمؤمنة، قال: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا» قالت: رسول الله، فقال: «اعتقها فإنها مؤمنة» لأنها عرفت أن ربها في السّماء.

وكذلك قال ﷺ: «إنّ ربكم حيي يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردّهما صفرا»، يعني إذا رفع العبد يديه إلىٰ السَّماء، إذا رفعت يديك إلىٰ من؟ لو رفعتها لغير الله لكان هٰذا شركا، معناه أنك تسأل غير الله إنما تسأل من في العلو ﷻ، ولهٰذا إذا سجدت ووضعت جبهتك في الأرض وصرت في موضع السُّجود والسفول عظمت الله بالعلو فقلت: سبحان ربي الأعلىٰ سبحانه وبحمده، كل هٰذا يدل علىٰ أن الله في العلو سبحانه وبحمده، فإذا رُدَّت هٰذه الآية في سورة الأنعام إلىٰ هٰذه النصوص تبين معناها ، هٰذا معنىٰ المحكم والمتشابه.

ماذا يفعل أهل الزَّيغ الذين قال الله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ ماذا يتبعون؟ ﴿مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ﴾ ويتركون المحكم البيّن الجلي، ما السبب؟ السبب اسمعه في كلام الإمام ابن جرير رحمه الله تعالىٰ.

يقول ابن جرير رحمه الله تعالىٰ بعد أن ذكر الآية، وذكر الحديث الذي سقناه في (مج٣/ ١١٨) من تفسيره قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ﴾ يقول: ما تشابهت ألفاظه وتصرَّفت معانيه، يكون لفظه محتمل لأكثر من معنىٰ ليحقِّقوا ما هم عليه من الضلالة، قصدهم باتباع المتشابه هٰذا أن يحقّقوا ما هم عليه من الضَّلالة، حتىٰ يجدوا في المتشابه ما يزعمون أنه يشهد لقولهم الباطل.

ثم روىٰ بسنده عن محمَّد بن جعفر ابن الزُّبير في قوله : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ قال: ليصدِّقوا به يعني بهذا المتشابه ما ابتدعوا ليكون حجَّة لهم علىٰ ما قالوا وشبهة. يعني حتىٰ يحتجوا به علىٰ ما قالوا، فيذهبون إلىٰ الشيء غير الواضح ويتركون الجلي البين.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في معنىٰ قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ﴾ يقول: إنما يأخذون بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة. لماذا؟ لأن لفظه محتمل وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه.

ثم يقول رحمه الله تعالىٰ: فأما المحكم يعني الواضح الجلي البين فلا نصيب لهم فيه، ما يهتمُّون به لأنه دافع لهم وحجة عليهم، هو دافع لهم وحجة عليهم، فهم لا يريدون أن يتبعوا الواضح؛ لأن الواضح حجة عليهم، فيذهبون إلىٰ الأمر غير الواضح، إلىٰ النص غير الواضح حتىٰ يستشهدوا به علىٰ باطلهم عياذاً بالله.

ومن هنا عرفت أن أهل الزيغ هم الذين يبحثون عن الأحاديث الموضوعة والمكذوبة يُقال: هٰذا حديث مكذوب علىٰ النبي ﷺ، فيه راوي زنديق قتل علىٰ الزندقة، مثل محمد بن سعيد المصلوب قُتل علىٰ الزندقة، كيف تحتج بحديثه؟ لأنه وجد في كلام هٰذا الكذَّاب علىٰ رسول الله ﷺ هوىٰ فقط، وهو لا يريد الحق، هو يريد اتباع هواه، ثم يأتي إلىٰ نص يحتمل فيذهب إلىٰ هٰذا النص المحتمل ويحتج به، فيقال له: لماذا تحتج بهذا النص المحتمل وتترك النصوص البينة؟ السبب هو هٰذا ابتغاء الفتنة كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ من قال: إنه يريد الحقّ هو، أو يريد الصَّواب؟ هو لا يريده عياذا بالله؛ لأنه صاحب هوىٰ، وقد حكم الله عليه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ فهٰذا هو مسلك أهل الأهواء، فإن قلت المتشابه هل يمكن أن يعرف، نقول: نعم يمكن أن يُعرف المتشابه إذا رد معناه إلىٰ المحكم، إذا رد معنىٰ المتشابه إلىٰ المحكم تبيَّن المتشابه، وبالتالي لا يكون في هٰذه الحالة عندك أي متشابه، إذا أخذت النص المتشابه المحتمل وعرضته علىٰ النّص الواضح الجلي تبيّن لك النّص المتشابه بدلالة النَّص المحكم، وبذلك يكون القرآن لديك كله محكم، كله واضح، بشرط أن تسلك هٰذا المسلك، وأن تعتقد أنه جميعا من عند الله كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ فنؤمن بالمحكم والمتشابه كله، لكن نفهم المتشابه من خلال إرجاع معناه إلىٰ المحكم، وبذلك يتّضح معناه.

هٰذا المسلك نبّه ابن كثير وابن جرير وابن سِعدي والشَّوكاني وغيرهم رحمهم الله إلىٰ أنّه هو مسلك أهل الأهواء، وأنه هو المراد في الآية في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ ويذكرون عادة هٰذا الحديث عند قوله ﷺ: «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله فاحذروهم» يحذر هؤلاء وينتبه لمسلكهم الخبيث؛ لأنهم لا يريدون الحق.

وقد تفطن السلف الصالح رحمهم الله لهٰذا المسلك، مسلك أهل الأهواء الذين يأتون ليؤسِّسوا دينا مبتدعًا ليس عليه دليل، ويريدون أن يجعلوا النّصوص تابعة له، ومن الذين تكلّموا في هٰذا الإمام الجليل إبراهيم النّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فقد روىٰ أبو نُعيم في «الحلية» في (مج٤/ ص ٢٢٣) والهروي في «ذمِّ الكلام» في (مج٤/ ص١٠٣) أن إبراهيم النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا كثرت المقالات والأهواء في الكوفة من مقالات المبتدعة سُئل عن ذلك فقال: دقّقوا قولًا واخترعوا دينًا من قِبل أنفسهم. هم الذين اخترعوه، ليس من كتاب الله ولا من سنَّة رسول الله ﷺ فقالوا: هٰذا هو الحق وما خالفه باطل؛ يعني أنهم أتوا بشيء مبتدع لا أساس له، لا في القرآن ولا في السنة، ثم مع ذلك تعصبوا له وقالوا: هٰذا هو الحقّ وما خالف هٰذا الذي نحن عليه فهو الباطل. وهٰذه مقولة قديمة؛ لأنّ إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قدماء السّلف، وأقدم منه الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ نبّه إلىٰ مسلك إلىٰ أهل الأهواء هؤلاء الذين يأتون إلىٰ النصوص وقد أُشبعوا بالباطل قبلها، فروىٰ المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الحجة علىٰ تارك المحجة» خرج أخيرا في (مج٢/ ص٥٩٠) قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المؤمن يأخذ دينه عن ربه عَزَّوَجَلَّ من خلال الوحي نصوص القرآن أو السنة، وإن المنافق نصب رأيه الذي ابتدعه، فاتخذه دينا –ينصب رأيا مبتدعا، ويدين بهذا الرأي الباطل، ويوالي عليه ويعادي عليه،

ويكفّر الناس أو يضلّلهم بناءً علىٰ قول ابتدعه، قال: أمّا المؤمن فمن أين يأخذ دينه؟ يأخذ دينه من عند ربه تعالىٰ، أرسل الله رسولا وأنزل كتابًا فلا يؤخذ الدين إلا من هٰذا الطريق، أما أن يأتي هٰذا لينصب قولا مبتدعا ثم يقابله آخر وينصب قولا مبتدعا، فهنا تأتي الفرقة كما سيأتي، هٰذا يتبعه أناس وذاك يتبعه أناس، ثم هٰذا الذي اتبع ينشق عنه أناس من تلاميذه، ويذهب جزء مع هٰذا وجزء مع هٰذا، ثم يستمرّ الشِّقاق كما سيأتي -إن شاء الله تعالىٰ- في نتائج هٰذا الفرق المنهجي.

هٰذه مقولة الحسن وهي في كتاب «الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة».

أما السَّمعاني أبو المظفر وهو من كبار الشافعية، فروىٰ عنه تلميذه قِوام السنة الأصبهاني في «كتاب الحجة في بيان المحجَّة» الأسماء قريبة رحم الله المصنفين وغفر لهما، يقول أبو المظفر السمعاني فيما يرويه تلميذه قِوام السنة الأصبهاني في كتاب «الحجة في بيان المحجة» في (مج٢/ ص٢٢٤) لما ذكر منهج أهل السنة وأنهم جعلوا الكتاب والسنة إمامهم تحدَّث عن الفرق الأخرىٰ فقال: وأما سائر الفرق -جميع الفرق الضالة- فطلبوا الدِّين لا بطريقه -من غير الطريق الذي يجب أن يؤخذ منه وهو الكتاب والسنة- لأنهم رجعوا لمعقولهم وخواطرهم وآرائهم، وطلبوا الدين من قبله. يعني صار يأخذ دينه من قبل رأيه ومن قبل الخاطر الذي يخطر له، فإذا سمعوا شيئا من الكتاب والسنة، لاحظ من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ عرضوه -عرضوا القرآن والسنة- علىٰ معيار عقولهم، فإن استقام ولم يصادم عقولهم قبلوه، أو ردوه، هٰذا هو مسلكهم.

الأقوال التي أنقلها في الغالب أني أختصرها لأنها مطولة فإذا رجعت إليها في مظانها تجدها مبسوطة؛ لكني أحاول أن أختصرها.

فإذا استقام القرآن والسنة ووافقهم قبلوه، أمّا إذا لم يستقِم علىٰ أهوائهم وعلىٰ آرائهم فإنهم والعياذ بالله يردُّونه.

ما النتائج التي ترتبت علىٰ مسلك أهل السنة في تعاملهم هٰذا مع النّص، وعلىٰ مسلك أهل الأهواء في تعاملهم مع النص؟

ترتب علىٰ هٰذا نتائج كبيرة جدًّا جدًّا، سنحاول أن نأخذ منها خمسًا هٰذا اليوم، وهي أكثر بكثير من هٰذه الخمس التي نذكر.

فأول نتيجة ترتبت علىٰ مسلك أهل السنة وتعاملهم مع النص شدَّة اعتناء أهل السنة بالنصوص رواية ودراية، يعني تجد أهل السنة شديدي الحرص علىٰ النصوص، رواية يعني بالسند، ودراية يعني فهما لمعناها، لماذا؟ لأنها هي أصل أهل السنة، هي الأصل الذي يرجعون إليه، وكل طائفة ترجع عادة إلىٰ أصلها الذي تعتمده فتعتني به، وتحاول أن تهتم به قدر ما تستطيع، ولهذا انظر الكتب السِّتة: البخاري ومسلم أبو داود والتِّرمذي والنَّسائي وابن ماجه، هٰذه الكتب لأهل السُّنة بحمد لله ليس لأهل البدع فيها قول، ويرجع إليها أهل الإسلام في الأحكام، فتجد حتَّىٰ المبتدع يقول: هٰذا الحديث صحيح رواه البخاري وهو مبتدع، يرجع إلىٰ البخاري رغمًا عنه، انظر إلىٰ أئمة الإسلام الآخرين، الإمام أحمد في «المسند» روىٰ

ألوف الأحاديث، مالك في «الموطأ»، الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الأم» الذي أفردت أحاديثه في «مسند» للشافعي خاصة، وهكذا أئمة الإسلام كالطَّبراني والدَّارقطني وأئمة الإسلام الأجلاء الكبار الآخرين الذين إلىٰ الأمة المرجع إليهم في الأحكام، وما الذي روىٰ النبي ﷺ في هٰذا الباب في باب العبادات، في باب المعاملات، في باب الأمور الغيبيّة، يرجع إليهم الناس حتىٰ أهل البدع سوىٰ الرَّافضة، الرَّافضة لا يرجعون؛ لأن لهم آثارا مكذوبة رضوها عن الأمَّة، أما غيرهم فيرجعون إلىٰ هٰذه المصادر.

عند قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر] هٰذه الآية تدلّ علىٰ أن ألفاظ القرآن محفوظة لا يمكن أن يقع فيها زيادة ولا نقصان؛ لأن الذي تكفل بحفظها هو الربُّ ﷻ لكن مدلول قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ هل يشمل الألفاظ أو يشمل حتّىٰ المعاني؟ يقول ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إنَّ الآية تشمل حفظ المعاني الصَّحيحة بأن تبقىٰ معاني هٰذه الألفاظ سليمة من التَّحريف فلا يحرف أحد المعنىٰ إلا ويقيِّض الله عَزَّوَجَلَّ له من أهل الحق من يبيِّن باطله، قال هٰذا مأخود من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يقول: فيشمل قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ اللفظ والمعنىٰ؛ لأنه لو بقيت الألفاظ وحُرِّفت معانيها وسرت المعاني المحرفة ما استفيد من حفظ الألفاظ حتىٰ تحفظ الألفاظ وتحفظ معانيها، ومن ضمن ذلك حفظ السُّنة فقد اعتنىٰ علماء الأمّة الراسخون من أهل السنة والجماعة بأحاديث النبي ﷺ، ولهٰذا يقول اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في (مج١/ ص٢٣): إن إلىٰ أهل الحديث ترجع كل طائفة في صحة الحديث من سقيمه -يرجعون إلىٰ أهل السُّنة- يقول: هٰذا الحديث ضعيف أو صحيح؛ لأن الذين اعتنوا بالرِّجال في الغالب هم أهل السنة، ومعولهم -يعني معول الطوائف هٰذه- علىٰ أهل السنة فيما يُختلف فيه من أمورهم يرجعون إلىٰ أهل السُّنة، ماذا قال أحمد في هٰذا الحديث؟، ماذا قال مالك في هٰذا الحديث؟، حتَّىٰ ولو كانوا يخالفون أحمد ومالك في الاعتقاد.

هٰذه هي النتيجة الأولىٰ، هي شدة عناية أهل السنة بالنصوص من القرآن والسنة حفظا لألفاظها وحفظا لمعانيها من التحريف حتىٰ سلمها الله ﷻ، فإذا أراد أحد أن يعرف ما الذي قاله الله؟ قيل: هٰذا هو لا زيادة بحمد الله ولا نقصان، ما الذي قاله النبي ﷺ؟ هٰذه الأحاديث الصحيحة وتلك الأحاديث الباطلة فرزها أهل العلم وأهل السنة رحمهم الله، ما معاني هٰذه النصوص، معاني هٰذه النصوص موجودة بحمد الله تجدها في «تفسير ابن جرير»، تجدها في «تفسير ابن أبي حاتم»، مروية عن خيار الأمة، عن ابن عباس ترجمان القرآن، عن ابن مسعود، عن مجاهد، عن قتادة عن غيرهم رحمهم الله تعالىٰ، تجد معاني هٰذه النصوص في هٰذه الكتب، فحفظ الله هٰذه النصوص، وهٰذه مفخرة كبيرة لأهل السنة، مفخرة عظيمة أن حفظ الله بهم دينه وحقق بهم وعده في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ هٰذه هي النتيجة الأولىٰ.

النتيجة الثانية وضوح الأدلّة عند السّني وضوح الأدلّة عند السني وانشراح صدره بها، وسلوكه مع ما تشابه النص الذي فيه تشابه يسلك معه ما أمر الله به، فيردُّه إلىٰ المحكم حتىٰ يتبيَّن.

إذن النتيجة الثانية وضوح الأدلَّة عند السني، الأدلة عند السني واضحة المعاني، ليست خفية واضحة جلية؛ لأن يجمع النصوص بعضها إلىٰ بعض فتتبين.

مثلا لو قال لك أحد: قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من هم المقصودون؟ يقول: المقصودون في سورة الفاتحة هم الذين بيَّن الله في سورة النّساء ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[النساء:٦٩] فهٰذا النَّص بينه نص آخر وهكذا، أما المبتدع فإنه ضيِّق الصدر بهذه النصوص عياذا بالله، يضيق صدره من النص الشرعي؛ لأنه بخلاف هواه ولا يأتي علىٰ ما يشتهي، النَّص ضد هواه، يريد أن يكفر؛ مثل الرافضي يريد أن يكفر الصحابة فيجد النصوص التي تلونا ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الحديد:١٠]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨﴾[الحشر]، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[الحشر]، يضيق صدره بهذه النصوص لأنها خلاف هواه، ولهٰذا يشرق بها كما يشرق الإنسان بالماء، تجد أنه مبغض للنص شعر أو لم يشعر، يضيق من هٰذه النصوص، ولهٰذا قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فيما تقدم: ليس من صاحب بدعة تحدثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعته إلا أبغض الحديث لخلاف البدعة التي هو عليها. رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» كما قلنا سابقًا.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» وهو كتاب عظيم حافل في الصفحة (٤٣) ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾[البقرة]، قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: فهٰذا حال كثير من خفافيش البصائر؛ يعني من أهل الأهواء في كثير من النُّصوص إذا وردت عليهم مخالفة لما تلقَّوه عن أسلافهم -يعني أسلافهم من المبتدعة- هربوا منها وكرهوا من يُسمعهم إياها، ولو أمكن الواحد منهم لسدَّ أذنيه كما في الآية، ولو قدر لعاقب من يتلوها وينشرها؛ لأن هٰذه النصوص ضد له، ولهٰذا تجد أنه كما ذكر الله ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هٰذا الحق ﴿فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ﴾ أهل الأهواء ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ يقول: قوة الحقّ كأنّها صوت الصَّواعق، فتجد أنهم يصعب عليهم أن يسمعوا هٰذه النُّصوص لأن أهواءهم -والعياذ بالله- مخالفة لها، هٰذه النتيجة عظيمة جدا جدا كون الإنسان يقرأ القرآن منشرح الصَّدر من أوله إلىٰ آخره هٰذه نعمة من نعم الله عَزَّوَجَلَّ، أما أن يقرأ القرآن فإذا أتىٰ إلىٰ موضع انقبض قلبه، ثم إذا بدأ في سورة أخرىٰ انقبض قلبه، وصار في قلبه نوع من الحرج والضِّيق بالنص، فهٰذا ضرب من ضروب النِّفاق، الذي يضيق صاحبه بكلام الله أو بكلام رسوله ﷺ.

القرآن ماذا سماه الله؟ سماه الله نورا وهدىٰ وشفاء وفرقانًا ومباركًا وضياءً، فإذا قرأه المؤمن ازداد نورا واتضح عنده الفرقان والضياء، أما إذا كان ينقبض القلب منه فمعناه ليس القرآن له نورا ولا ضياء، وهٰذا لأن العيب فيه هو لا في كلام الله، إذا لو كان قلبه سليمًا لانتفع بهذا الشِّفاء وانتفع بهذا النور وانتفع بهذا المبارك، فلما لم تظهر عليه بركة القرآن، ولم يستفد من نوره ولم يتعالج بشفائه دلَّ علىٰ خُبث مسلكه، وإلا لو كان كأصحاب نبيِّ الله ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [الجمعة:٢] زكَّاهم الله طهَّرهم بعد أن كانوا من أردأ الناس وأحطِّهم صاروا أخير الناس وأفضل الناس بعد الأنبياء الذي طهر الصحابة هو القرآن والسنة، فمن جاء بعدهم ولم يتطهر بالقرآن ولم يكن القرآن له شفاء،

فليس الإشكال في القرآن، لا والله، الإشكال فيه هو، لأنه من أهل الباطل الذين قال الله : ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[يونس].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في وصف هؤلاء هٰذا موضع نسينا أن نذكره: المفترقة من أهل الضَّلال -يعني أهل الأهواء- تجعل لها أصول دين ابتدعوه برأيهم ثمَّ يعرضون علىٰ ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجُّوا به اعتضادا -من باب الاعتضاد لا من باب الاعتماد عليه، إنَّما من باب الاستئناس به-، وإن خالف القرآن أهواءهم فتارة يحرِّفون الكلم ويتألونه علىٰ غير تأويله وتارة يعرضون عنه ويقولون: نفوِّض معناه.

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في نونيته أبيات شائقة جدا في وصف حال أهل الضلال هؤلاء، عند ذكره مسألة دوام فعل الرب، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلئن سألت وقلت ما هٰذا الذي ... أداهم لخلاف ذا التبيان

ولأي شيء لم يقولوا: إنه ... سبحانه هو دائم الإحسان

فاعلم بأن القوم لما أسسوا ... أصل الكلام............

يعني البدعة المسماة ببدعة المتكلمين

فاعلم بأن القوم لما أسَّسُوا ... أصل الكلام عمُوا عن القرآن

وعن الحديث ومقتضىٰ المعقول ... بل عن فطرة الرَّحمٰن والبرهان

وبنوا قواعدهم هٰذا الشّاهد؛ أنهم يبنون القواعد قبل أن ينظروا في النُّصوص:

وبنوا القواعد عليه فقادهم ... قصرا إلىٰ التَّعطيل والبُطلان

يعني يبنون القواعد قبل أن ينظروا في النّصوص، ولهٰذا لمَّا كان هٰذا الوصف هو وصف جميع المبتدعة بدون استثناء، قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عند الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: يُعنىٰ بهذه الآية كلُّ مبتدع في دين الله من أهل النَّصرانية أو اليهودية أو كان سبئيًّا -يعني أصحاب عبد الله بن سبأ- قدماء الرَّافضة أو قدريًّا أو حروريًّا -يعني أو خارجيًّا- أو أيا كان أي مبتدع يشمله قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾.

وذكر هٰذا الكلام كلام ابن تيميَّة قوله: المفترقة من أهل الضَّلال تجعل لها أصول دين.. هٰذا في (مج ١٣/ ص١٤٢)، وقال في (مج١٧/ ص٣٥٥): هٰذه الطَّريق -يعني طريقة التَّعامل السَّيئة مع النص- يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصِّغار، يجمعهم هٰذا الأمر وهو أنهم -والعياذ بالله- كلُّهم علىٰ هٰذا فيه أنهم يقدمون أهواءهم علىٰ النُّصوص. سواء كانت بدعتهم كبيرة أو صغيرة.

نعود إلىٰ النتائج، ذكرنا نتيجتين:

النتيجة الأولىٰ شدة عناية أهل السنة بالنصوص.

والنتيجة الثانية انشراح صدر السُّني بالنص، وعكس ذلك فيما يتعلق بالمبتدع.

تأتيك **النتيجة الثالثة** وهي أنك إذا دقَّقت فيما عند أهل الأهواء من الحق -أهل الأهواء يكون عندهم بعض الحق-، إذا دقَّقت فيما عندهم من الحق وجدته مخلوطًا بالباطل، ماذا يفعلون يَلبسون الحقَّ

بالباطل، فإذا محَّضت هٰذا الحقّ، قلت: سأنظر في الحق الذي عليه المعتزلة وأجعله علىٰ جهة، وأجمع الحق الذي عند الخوارج وأجعله علىٰ جهة، وأجمع الحق الذي عند الأشاعرة كذلك، الحق الذي عند الماتريدية كذلك، وأنظر في مجموع هٰذا الحق، ماذا ستجد؟ ستجد أن الحق عند كل طائفة مأخوذ من النُّصوص، فالحق الذي عندهم أخذوه من النصوص، كما قال ابن القيم في «النونية» أيضا:

واسمع نصيحة من له خُبْر بما عند الورىٰ من كثرة الجَوَلان

ما عندهم والله خيرٌ غير ما أخذوه عمن جاء بالقرآن

يقول ما عندهم خير إلا الذي أُخذ عن النبي ﷺ.

والكل بعدُ فبدعة أو فرية أو بحث تشكيك ورأي فلان

الذي عندهم من الحقّ تجد أنّه قد أُخذ من النُّصوص، وبالتَّالي في النصوص غُنية عمَّا عندهم، إذا كان الحق الذي عند الخوارج ليكن نسبته المئوية ما كان؛ لكنه يرجع إلىٰ النصوص، والذي عند المعتزلة يرجع إلىٰ النصوص، فلنستغن بالنُّصوص عمَّا عندهم، لو قال إنسان: أنا أريد أن أعرف الحق الذي عند المعتزلة، ولهٰذا سأقرأ كتبهم.

نقول: الحقُّ الذي عندهم أخذوه من القرآن والسنة، الحق الذي عند الخوارج أخذوه من القرآن والسنة، فإن كنت تريد أن تعرف الحق الذي عند كلِّ طائفة فاهتم بالنُّصوص؛ لأنك إذا اهتممت بها جمعت حق الطَّوائف كله، وهٰذا هو المسلك الذي لزمه أهل السُّنة وهو أنهم يأخذون من النصوص.

فإذا قال المعتزلة مثلا: نحن حين نشدِّد علىٰ صاحب الكبيرة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عظَّم من أمر المعصية والجرأة عليه وهدد عليه بالنار وتوعَّد العباد علىٰ معصيته.

نقول: هٰذا حق؛ لكن قولكم: إنَّه في منزلة بين المنزلتين باطل، أمَّا التشديد علىٰ من يجترئ علىٰ المعاصي فهو في النصوص، لسنا بحاجة إليكم حتىٰ نأخذه منكم، هو موجود في النصوص قبلكم وقبل أن تنشأ بدعتكم.

وإذا قالت الرّافضة: نحن نحب آل بيت النبي ﷺ. نقول: من قال لكم: إن آل بيت النبي ﷺ لا يُحَبون؟! حبهم دين وإيمان، ونحن نصلِّي عليهم مع نبينا ﷺ كل صلاة: اللّٰهمَّ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد؛ ولكن كونكم تعبدونهم من دون الله، هٰذا هو الباطل، كونكم تحتجون بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾[الأحزاب] نقول: هٰذا حق في القرآن؛ لكن كونكم تبالغون وتزيدون حتَّىٰ تصلوا إلىٰ حدِّ عبادتهم، إلىٰ حدِّ السُّجود لهم، إلىٰ حد دعائهم من دون الله. هٰذا باطل ليس في النصوص، أما حبهم فندين الله بحبهم كما نحبُّ الصحابة أيضًا، فكما أننا نحب آل بيت النبي ﷺ نحب أصحابه؛ لأن النصوص دلت علىٰ هٰذا وعلىٰ هٰذا، فلماذا تركتم حب الصحابة وهو في النصوص، وادَّعيتم حب آل البيت؟ كلها في النصوص، فنحن نأخذ ما في النصوص، سواء قلتم به أو لم تقولوا، فإذا جمعت ما في النصوص اجتمع الحقُّ كله عندك، هٰذه هي النتيجة الثالثة.

النتيجة الرابعة: هي سلامة أهل السنة من أي انتماء باطل؛ أهل السنة لا ينتمون إلا للقرآن والسنة، فلهٰذا

لا تجد أنهم ينتسبون إلىٰ فرقة ضالّة، فمن أعظم النتائج التي ترتَّبت علىٰ عناية أهل السُّنة بالنصوص هي سلامتهم من الانتماءات الباطلة، فإذا كان المعتزلي يقول: أنا أنتمي لتيار الاعتزال، والجهمي يقول: أنا أنتمي لتيار التّجهم، والرَّافضي يقول: أنا أنتمي لتيَّار الرَّفض، والخارجي يقول: أنا أنتمي لتيار الخروج، فالسني يقول: أنا انتمي لله ولرسوله ﷺ، لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ، ولا أرض بديلا بهذه النسبة مهما كان الحال، إنَّما أنتمي للنُّصوص.

ولأهل العلم رحمهم الله في هٰذا نقولات مهمة جدًّا يحسن بطالب العلم أن يعتني بها ويهتم بها، ولهٰذا حاولت أن أورد منها عددا، والظاهر أننا سنختم بها إن شاء الله حتَّىٰ لا نطيل.

ونبدأ -إن شاء الله- من الغد في شرح الكلام في مسائل الاعتقاد، نريد أن نخصِّصها -إن شاء الله تعالىٰ- الأيَّام القادمة لشرح مسائل الاعتقاد حتَّىٰ يكون لدينا وضوح في المنهج وضوح في المسائل الاعتقادية معا إن شاء الله.

فمن النّماذج علىٰ سلامة أهل السُّنة من الانتماء لغير الكتاب والسُّنة ما رواه اللالكائي في (مج١/ ص٦٥) عن أبي بكر بن عيَّاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له سأله رجل فقال: من هو السني؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إذا ذكرت عنده الأهواء لم يغضب لشيء منها، لا يهتم بأن ينتصر لهٰذه الطوائف لأنّها طوائف ضلال أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعرفون به. ولهٰذا قالوا: نحن نلزم هٰذا المنهج ولا نرضىٰ به بديلا بالانتماء إلىٰ أي شيء سواه.

وقال الإمام مالك، هٰذا الإمام المسدد الموفق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، له عدَّة مقولات عقدية ومنهجية فيها من الحكمة والعلم والبصيرة الشَّيء الكثير، أما مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو الذي سئل: من أهل السنة؟ فقال: الذين ليس لهم لقب يُعرفون به، هم أهل السنة، و كفىٰ به شرفا وهٰذا رواه ابن عبد البر في كتابه «**الانتقاء في فضائل الأئمة الثّلاثة الفقهاء**» في صفحة (٣٥).

وقال مالك أيضا لمن سأله عن السنة نفسها قال له رجل: ما السنة؟ يعني ما هي السنة؟ قال: السنة ما لا اسم له إلا السنة، ما للسنة اسم إلا السنة، وهٰذا ذكره ابن القيّم في «مدارج السّالكين» في مج٣/ ص١٧٦) ولم ينسبه لمالك بعينه، وإنّما قال: قال بعض الأئمة ونسبه الشّاطبي في الاعتصام في (مج ١/ ص٥٨) نسبه لمالك بيّن أن هٰذا الإمام هو مالك، يقول ابن القيم في الموضع الذي ذكرناه لك مبينا معنىٰ هٰذا الكلام: أي ليس لأهل السنة اسم يُنسبون إليه سواها، ما لهم أي اسم، إذا قيل: أنت من هٰذا الاسم أو من هٰذه الطائفة أو من الحزب أو من هٰذه الجهة؟، يقول: لا، أنا من أهل السنة أنتمي للسُّنة، أعيش علىٰ السنة وأموت عليها بإذن الله، فلا أرتضي بالسنة بديلا فانتمائي للسنة، ودفاعي عن السنة، وهديي علىٰ السنة، هٰذا معنىٰ كلام مالك، ولهٰذا حذر أهل العلم رحمهم الله من الانتماءات الباطلة، أي انتماء لا يصلح، إلا إذا كان للإسلام أو للسنة.

فقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كما روىٰ أبو نعيم في «الحلية» في (مج٤/ ص٩٢) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إيَّاكم وكل هوىٰ يسمَّىٰ بغير إسلام، كل هوىٰ سُمي باسم اعتزال تجهم رفض خوارج، يقول: إياكم وهٰذا الهوىٰ لا ترتضوا إلا اسما واحدا هو اسم الإسلام واسم السنة.

وقال ابن بطة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الشرح والإبانة» في صفحة (٣٦٨): من السنة وتمام الإيمان وكماله البراءة من كل اسم خالف السنة.

كل اسم خالف السنة فمن تمام الإيمان أن تتبرأ منه، ليس لك أن تنتمي إلا إلىٰ السنة، فلا عجب ولا غرابة من أن يقف أهل العلم هٰذا الموقف من هٰذه الانتماءات التي جدَّت في المسلمين وفرَّقت شملهم وهم يسمعون النبي ﷺ يقول هٰذا الحديث العظيم الذي حَكم عليه بالصِّحة غير واحد من أهل العلم، يقول ﷺ: «فادعوا المسلمين بأسمائهم، بما سماهم الله عَزَّوَجَلَّ» ما الذي سمانا الله في القرآن ؟ المسلمين ، المؤمنين، عباد الله عَزَّوَجَلَّ، لتكن التسمية بين المسلمين باسم الإسلام النقي الطاهر الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فإذا قيل للإنسان: إلىٰ أي شيء تنتمي؟ فليقل: إني أنتمي إلىٰ الإسلام وإلىٰ السنة ولا أرتضي بديلا مع هٰذا الحديث العظيم، فادعو المسلمين إذا أردتم أن تدعوهم بأسمائهم التي سماهم الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عَزَّوَجَلَّ، وهٰذا يعني أنّه ليس لأحد أن ينشئ فرقة ويقيم بدعة؛ لأنه في هٰذه الحالة سيسمَّىٰ ببدعته فيقال: هٰذا رافضي، هٰذا خارجي، هٰذا معتزلي، هٰذا جهمي، هٰذا مرجئ، فلا يسمىٰ أهل الدين الواحد بالاسم الذي سماهم الله؛ لأن كل واحد صار يرتضي لنفسه اسما، ولهٰذا ينبغي علىٰ أهل الإيمان أن لا يرتضوا باسم الإسلام بديلا ولا باسم السنة بديلا، نسأله تعالىٰ أن يثبتنا وإياكم علىٰ الإسلام والسنة.



[الدرس الرابع]

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فقد تقدّم الكلام عمّا يتعلّق بعموم معتقد أهل السنة وأخذ أهل السنة فيه بالنُّصوص وبنائهم رحمهم الله تعالىٰ سائر أمر المعتقد وأمر السُّلوك وأمر المعاملات علىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وذكرنا أنَّ هٰذا هو الفرق المنهجي الكبير بين أهل السنة رحمهم الله وبين خصومهم، وإذا قلنا: إن هٰذا هو الفرق المنهجي، فإن الكثير من الفروق تعود إليه الكثير من الفروق بين أهل السنة ومخالفيهم تعود إلىٰ هٰذا الفرق.

مثل ما ذكرنا إذا قيل: لماذا يقدح الروافض في أصحاب النبي ﷺ مع وضوح النصوص؟

فنقول: بسبب تعاملهم مع النص.

لماذا تقول المعتزلة في أمر القدر بهذه المقولة السيئة مع وضوح النصوص؟ فنقول: هو بسبب تعاملهم مع النص.. وهكذا سائر الفرق والطوائف الضالة علىٰ هٰذا الحال.

نتحدث اليوم بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ عن مسألة عامّة تتعلّق بمنهج أهل السنة والجماعة، هو وسطية أهل السنة والجماعة، كون أهل السنة -رحمهم الله- وسطا في أمور الاعتقاد.

وهٰذه المسألة -مسألة الوسطية- من المسائل التي يُحتاج إلىٰ أن يوقف عندها وأن تُتأمل وأن يضبط المصطلح أولا؛ لأن من المشاكل الكبيرة في هٰذا الزمن، أنَّ كلمات كثيرة يكون ظاهرها طيِّبا، تطلق ويكون المراد بها سيِّئا، ومن أشهر ما أطلق في هٰذا الزمن وهو مما أطلق زمن المنافقين كلمة الإصلاح، فإنَّ كلمة الإصلاح أطلقها المنافقون علىٰ أفعالهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[البقرة]، قال تعالىٰ ردا علىٰ قولهم هٰذا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[البقرة]، فإنَّ أهل الباطل يكسون باطلهم بعبارات طيِّبة حسنة برَّاقة، كما قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: إيَّاك وآراء الرِّجال وإن زخرفوها لك بالقول، يزخرفونها يحلُّونها يحسِّنونها تحت مسمَّيات ظاهرها حسن؛ ولكنها تحمل السُّوء والشر، فمن أراد أن يزيح الشرع بأن يطبق بين المسلمين وأن يحل محله أقوال أهل الكفر من الغربيين أو الشرقيين، قال: إنَّ عمله هٰذا إصلاح، وإنه مصلح، وإنه إنما يريد صلاح المجتمع، وهكذا سائر الدَّعوات الفاسدة -عياذًا بالله- يسميها أهلها بالإصلاح والإصلاحيَّة، ولهٰذا كان ينبغي أن تُضبط هٰذه المسائل، حتَّىٰ فرعون عدو الله، لما أراد أن يصيب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالشَّر ادَّعىٰ أنه منطلق من منطلق إصلاحي، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[غافر]، يقول في حقِّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أن الإصلاح فيما جاء به موسىٰ والإفساد هو فيما فيه فرعون وقومه، وكأنه يقول: إني أريد الإصلاح وقطع الفساد الذي سيأتي به موسىٰ، أخزاه الله وقاتله.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن لا يكون مستعجلًا يطير مع هٰذه العبارات ويؤيِّدها ويثني عليها وهو لا

يدري بحقيقة ما تحمله من المبدأ السَّيِّئ، ومن ذلك في هٰذه الأزمنة والذي انتشر في كثير من الناس بكل أسف بسبب الجهل بحقيقة المذاهب والمقولات الحديثة، هٰذه الكلمة التي فشت في النَّاس الآن فشوا عظيما وهي كلمة (الديمقراطية) وهي كلمة خطرة جدًّا لا يعي كثير ممن يردِّدها معناها ويثنون علىٰ من يكون عنده عدل وإصلاح من سلف الأمَّة كعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمثاله بأنه رجل ديمقراطي، أجلّ الله عمر وأكرمه ورفع قدره من أن يوصف بمثل هٰذا الوصف، هٰذه الكلمة مبدأ يوناني قديم لها مدلولات وتعني مفاهيم معينة ولها ترجمة محدَّدة، والذي يطلقها هٰذا الإطلاق قد دلَّ علىٰ نفسه بأنه لا يدري ما تحمل من معنىٰ.

ولهٰذا ينبغي دائما أن تستخدم العبارات الشرعية؛ لأن العبارات الشرعية سليمة دائما، أما العبارات الوافدة فإنه يظهر منها الجانب الحسن؛ ولكن حقيقة المبدأ الذي تحمله، والذي ترجع إليه مبدأ خطر جدا دون أن يشعر مرددوها، ومن ذلك ما فشىٰ في سنوات انتصار الإشتراكيين منذ عقود قريبة حين صارت تمدح الاشتراكية، ويثنىٰ علىٰ الاشتراكيين، حتىٰ قال بعضهم: إن الإسلام دين اشتراكي، كما يقول بعضهم اليوم: إن الإسلام دين ديمقراطي، وهو أرفع وأكرم من أن يوصف بمثل هٰذه المبادئ الباطلة؛ ولكن الجهل بحقيقة هٰذه المبادئ الخطرة وأنها تنطلق مما يسمُّونه بلغتهم الأيديولجيات التي يعود إليها المبدأ، كل مبدأ يا إخوة علىٰ وجه الأرض حتىٰ ولو كان مبدأ ساذجًا سخيفًا يعود إلىٰ اعتقاد، لابد أن يعود لاعتقاد معين ينطلق منه، فينبغي أن يلاحظ عدم إقحام الإسلام في شيء من هٰذه المبادئ؛ لأنه أعلىٰ وأرفع منها وأشرف وأكرم وأنزه من أن يكون تابعًا لهٰذه المبادئ.

هٰذا الكلام ساق إليه الحاجة إلىٰ ضبط المصطلحات وهي مسألة مهمَّة جدا وهي موضوعنا اليوم؛ وهي مسألة الوسطية –كما قلنا– ساقتنا إلىٰ الكلام علىٰ مسألة الإصلاح وعلىٰ هذين المبدأين اللذين أُلصقا بالإسلام ولدىٰ بعض النَّاس استعداد وظهر مبدأ آخر علىٰ أنقاض الدِّيمقراطية أن يلصقه بالإسلام أيضا، مستعدُّون لأن جرأتهم علىٰ دين الله وعلىٰ أحكامه عَزَّوَجَلَّ سهلة لا ينظر إلىٰ الفروق الكبرىٰ التي بين الإسلام وبين المبادئ الباطلة.

الإسلام اليوم علىٰ وجه الأرض هو المبدأ الوحيد فقط الذي له صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وما سواه من جميع المبادئ قد انقطعت صلتها بالله، إذا كانت في أصولها من عند الله كاليهودية والنصرانية فإنها بعد الإسلام لا تُقبل، فضلا عمَّا وقع فيها من التحريف والتشويه الذي أخرجها عن حقيقتها الأولىٰ، وما سواه فإنها مبادئ أرضية إما أن تكون وثنية علىٰ طريقة البوذيين وأمثالهم، وإما أن تكون مبادئ إلحادية، فيا لله العجب كيف يجعل الطُّهر والنزاهة الآتية من رب العالمين، كيف تُلصق بهذه المبادئ القذرة؟، دين الله عَزَّوَجَلَّ الرفيع الطاهر الذي لا دخول لأحد إلىٰ الجنة إلا من طريقه، يُلصق في هٰذا المبدأ تارة وفي مبدأ آخر تارة، فدين الله عَزَّوَجَلَّ لا يحل أن يعاد إلا إلىٰ أصوله الحقيقيّة التي نبع منها وهي القرآن والسنة، ولا يصلح أن يوسم ويوصف بوصف إلا بالوصف الذي أنزله ربّ العالمين، فأما تلوين الإسلام وتشكيل الإسلام تارة بشكل كذا وتارة بلون كذا، فهي جناية علىٰ دين الله، وقول عليه بلا علم وإضلال للناس .

الحاصل نعود إلىٰ موضوعنا هٰذا وهو موضوع الوسطية، نقول: الكثير الآن من المبادئ الباطلة تدعي

أنها علىٰ الوسط، وأنها منطلقة من أساس يتميز بالتَّوازن والبعد عن الشطط واللجوء إلىٰ الطرف والحدّة، وكل أحد يدعي هٰذه الدعوىٰ.

ونحن نقول: إنَّ الحكم علىٰ أن هٰذا وسط أو ليس بوسط راجع إلىٰ النصوص أيضا، فإن الحكم علىٰ مبدأ بأنه مخالف أو بأنه موافق، أو علىٰ قول بأنه متزن متوسط أو بعيد وفي طرف وغلوّ يرجع إلىٰ النصوص، يعرض علىٰ النَّص؛ فإن وافق النص فهو الوسط وهو الصَّواب وهو الحق، وإن خالف النص فهو الباطل إما أن يكون غلوًّا أو أن يكون تقصيرا.

فالحكم بالوسطيّة يرجع إلىٰ النص فما وافق النص فهو الوسط وما قَصُر عن النص فهو الجفاء، وما زاد علىٰ النص فهو الغلو، وهٰذا كله منطلق مما ذكرناه بالأمس، من أن أهل السنة مبدؤهم الأول هو النص، سواء في المذاهب القديمة الأولىٰ، حين خرجت البدع الضَّالة كبدع المرجئة والمعتزلة والروافض وغيرهم، أو حتىٰ في المبادئ الحديثة لأنه ليس المقصود بالاعتقاد في الإسلام، ما سبق وسلف، وإنّما الاعتقاد في الإسلام يبيِّن كلَّ مبدأ إلىٰ يوم القيامة؛ لأنه يُعرض علىٰ النص، ويوضِّح ما فيه من خلل وما فيه من زيغ.

فهٰذه المسألة مسألة مهمَّة أن نعرف أوّلًا أن الحكم بالوسط والتوسُّط هٰذا راجع للنص وليس راجعا لهوىٰ الإنسان، فكل من هوىٰ شيئًا ادَّعىٰ أنه متوسِّط وأن من خالفه فهو الذي خرج عن الوسطية، هٰذه المسألة مسألة الوسطية، يقرِّر أهل العلم رحمهم الله من السلف الصالح وغيرهم من أهل السنة أن أهل السنة هٰذه عبارة التي يقولها أهل العلم: أهل السنة وسط في أهل الأهواء، كما أنّ الإسلام وسط في الدِّيانات.

وهٰذا كلُّه لا يتضح بجلاء إلا مع الأمثلة إن شاء الله، لنأخذ مثلًا علىٰ وسطية الإسلام، نقول: نحن نعلم أنّ عيسىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- نبيّ من أنبياء الله، وعبد من عباد الله، رسول كريم، وقد اختلفت فيه ملَّتان مشهورتان قبلنا اليهود والنصارىٰ:

فاليهود قالوا فيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- القولة العظيمة الشنيعة: فكذبوه وزعموا أخزاهم الله وقاتلهم أنّه ابن زانية، وقالوا علىٰ أمه القول العظيم كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾[النساء]، فكذَّبوا دعوته، وادَّعوا أنه ليس برسول؛ بل وقالوا فيه القولة العظيمة وفي أمِّه.

أما النَّصارىٰ فقابلوهم بالغلوِّ فيه -صلوات الله وسلامه عليه- حتىٰ أخرجوه عن نطاق البشرية، وقالت طوائف منهم: إنه هو الله عياذًا بالله، وقالت طوائف أخرىٰ: إنَّه ابن الله، وقالت طوائف أخرىٰ: إنَّه ثالث ثلاثة الأب والابن وروح القدس.

فأين قول اليهود فيه بتكذيبه ودعوىٰ -والعياذ بالله- أنه ابن زانية من قول النَّصارىٰ إنه هو الله، هؤلاء في طرف وأولئك في طرف.

فجاء الله بدينه ليبيِّن حقيقة عيسىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- وأنه عبد رسول؛ عبد من عباد الله لا يمكن أن يكون ربًّا، ولا يمكن أن يكون ابنًا لله عياذًا بالله؛ لأن الله لم يلد ولم يولد ولم يتَّخذ ولدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإنّما

هو عبد من عباد الله، وفي نفس الوقت هو من خيار عباد الله ومن الصادقين المرسلين من عباد الله، لا كما تقول اليهود ولا كما تقول النَّصارىٰ، فهو رسول كغيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وعلىٰ نبينا محمد.

ولهٰذا لاحظ في حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله» لماذا نصَّ علىٰ عيسىٰ، مع أن نوحًا وإبراهيم وشعيبًا وموسىٰ وصالحًا وغيرهم من الأنبياء كلهم يصدق عليهم أنهم عباد الله، وأنهم أنبياء الله منهم المرسلون ومنهم الأنبياء؟، فلماذا خصَّ عيسىٰ بالذات؟ خص عيسىٰ بالذات لوجود الغلو فيه من طرف النَّصارىٰ والجفاء فيه من قبل اليهود، فخصَّه، «من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنّة حق والنّار حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل» فنصَّ علىٰ عيسىٰ بالذات؛ لأن للإسلام فيه التوسط الحقيقي والصواب الذي لاشك فيه، ولأعداء الله من اليهود ومن النَّصارىٰ فيه إمَّا الجفاء وقلّة الحياء، وقلّة الأدب من اليهود بأن يقولوا في هٰذا النبيِّ الكريم هٰذه القولة العظيمة، أو الغلوّ والمبالغة ومجاوزة الحدّ من قبل النَّصارىٰ عُبَّاد الصَّليب، فلهٰذا نص عليه بالذات، فالإسلام وسط سواء في اعتقاده أو حتىٰ في التعامل، في المعاملات وفي العبادات، فهو بحمد الله دين وسط.

ومن الأمثلة التي يوردها أهل العلم -رحمهم الله- في جانب المعاملات المثال السَّابق في جانب الاعتقاد مثال عيسىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

أمَّا المثال في جانب المعاملات الإجتماعية فهو حكم الحائض، المرأة إذا حاضت كان اليهود إذا حاضت المرأة يعتزلونها ولا يؤاكلونها ولا يشربون معها ويتجنَّبونها تمامًا. أما النصارىٰ فقد كانوا -والعياذ بالله من الفريقين- يعاشرون المرأة حتىٰ في حال المحيض، فجاء الله بالدِّين الوسط، فصار حكم الحائض ما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إن حيضتك ليست في يدك»، المرأة الحائض جسمها طاهر؛ طهيها الطَّعام، أخذها، إعطاؤها.. ما فيه إشكال، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾[البقرة:٢٢٢]، تعتزل في المحيض فقط، يعني أنها لا تجامع فقط، أما أن تُطرد إلىٰ موضع وتُبعد ولا يؤكل معها ولا يشرب فهٰذا فعل اليهود، ويقابله فعل النَّصارىٰ الذين لا يكترثون لقذارتهم فيعاشرون المرأة بالجماع حتَّىٰ وهي حائض.

وهكذا الأمثلة كثيرة جدّا، وهي دالة علىٰ أن الإسلام وسط في الأديان؛ ولأن أهل السنة هم الذين لزموا الحق الذي جاء الله به، فقد ورثوا هٰذا الوسط من دينهم نفسه، فصار اعتقادهم وسطًا في الطّوائف الضّالة بين مبالغة أهل الغلو وبين جفاء أهل التَّقصير.

ولهٰذا أمثلة نذكرها الآن إن شاء الله تعالىٰ مسائل عقديَّة يتَّضح فيها توسّط أهل السنة بين طرفين بغيضين من أهل الأهواء.

وقد قال بعض السَّلف رحمهم الله: إن للشيطان محجَّتين لا يبالي بأيِّهما سلك العبد يعني للشيطان طريقين لا يهتم الشيطان بأيِّ هذين الطَّريقين سلك الإنسان، جفاء أو غلو، أو كما قال، إمّا أن يكون جافيا

لا خير فيه، ومخالف للنّصوص، وإما أن يكون فيه مبالغة وغلوّ، الشَّيطان لا يكترث، لا يهتم؛ لأنه يريد أن يزيح الإنسان عن هٰذا الصراط المستقيم، فإذا انزاح عن الصراط المستقيم فسواء اتّجه يمينا أو شمالا فالشيطان لا يهمُّه لأن الشَّيطان كما بين الله قد توعد الناس فقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾[الأعراف]، فهو يريد أن يقف علىٰ الصِّراط المستقيم ويزيح الناس عنه، فإذا انزاحوا نحو اليمين لا يهمُّه، انزاحوا نحو الشمال لا يهمه.

المهم أن يبعدوا عن الصراط المستقيم ولهٰذا خط النبي ﷺ مرة خطا مستقيما، ثم قال: «هٰذا صراط الله»، يعني هٰذا السبيل والطريق الذي جعله الله، وخطَّ عن يمين الصراط وعن شماله خطوطا، وقال: «هٰذه سبل» أي طرق «علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ وهي الطُّرق التي تزيح الناس عن هٰذا الصراط المستقيم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣]، ولهٰذا تقدَّم أنَّ النبي ﷺ قال: «وستفترق هٰذه الأمَّة علىٰ ثلاث وسبعين ملّة كلها في النار إلا واحدة»، هٰذه الواحدة هي التي لزمت هٰذا السَّبيل هٰذا الطريق، وهو الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فمن لزم هٰذا الطَّريق فهو سالم بلا أدنىٰ شك، أما من إنزاح عن هٰذا الطريق فسواء أخذ بقول أهل الشطط هنا أو بقول أهل الشطط هناك، فقد ضل عن صراط الله المستقيم.

ولهٰذا كان ينبغي أن يعرف أن قول أهل السنة المبني علىٰ النصوص وهو القول الوسط، وأن قول أهل السنة يكون ممَّا يقابله طريقان :

- طريق يجفو نحو اليمين.
- وطريق ينحا نحو الشّمال.

ولهٰذا كما قلنا أمثلة نذكرها إن شاء الله تعالىٰ الآن:

من ضمن هٰذه الأمثلة المسألة العظيمة الكبرىٰ؛ **مسألة الأسماء والصِّفات.**

أهل السُّنّة رحمهم الله كما ذكرنا مرّات يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبت لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ويبعدون عن تشبيه أسماء الله وصفاته بصفات المخلوقين، التزامًا منهم لقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشُّورىٰ]، فهٰذه الآية العظيمة جمعت المنهج القويم الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن في أسماء الله وصفاته، يجمع بين النَّفي وبين الإثبات، فينفي ما نفىٰ الله ويثبت ما أثبت الله، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

فإذا تقرَّرت هٰذه القاعدة واتَّضح للمسلم أن الله لا يماثله شيء كائنًا ما كان هٰذا الشيء، فإنَّه يثبت الصِّفة علىٰ هٰذا الأساس، فيثبت لله السمع الذي لا يماثل سمع المخلوقين، البصر الذي لا يماثل بصر المخلوقين، العلم الذي لا يماثل علم المخلوقين، وهكذا لأنَّ أسماء الله وصفاته تليق به عَزَّوَجَلَّ، كما أن أسماء المخلوق وصفات المخلوق قاصرة مثل قصور المخلوق.

ومن هنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ﴾ ثم بيَّن عَزَّوَجَلَّ أن حياته ليست كحياة غيره فقال: ﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، أما من سواه من الأحياء فإنهم يموتون، وهٰذا معنىٰ قولنا: إن صفات الله عَزَّوَجَلَّ لا

تماثل صفات المخلوق، تثبت لله عز وجل؛ لأنه أثبتها لنفسه وعرّف عباده بنفسه بها، فقال مثلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ ثمَّ بدأ يعرف نفسه سبحانه من هو ربُّنا هٰذا؟ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فأثبت لنفسه أنّه هو الخالق، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فأثبت أنّه يستوي علىٰ عرشه، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وأن ما يقع في الليل وفي النهار بأمره سبحانه، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ يعرفنا ربنا تبارك وتعالى أن إليه الأمر وهو الذي يصرف السّمٰوات والذي خلق السّمٰوات والأرض والذي يصرف يسخرها سبحانه، وهو الذي استوىٰ علىٰ عرشه يعرّف بنفسه سبحانه، فكما أننا نثبت ما في الآية بأن الله هو الذي خلق السّمٰوات والأرض فإننا نثبت أنّه استوىٰ علىٰ عرشه؛ لأنه يعرفنا بنفسه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ ثم بدأ يعرِّف بنفسه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإذا قيل لنا: من خلق السّمٰوات والأرض، نقول: الله وحده لا شريك له؟ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إذا قيل: أتقولون: إن الله استوىٰ علىٰ العرش؟ نقول: إيه والله، نقول: نقول: إن الله استوىٰ علىٰ العرش؛ لأنه هو الذي أخبر عن نفسه، وعرّف بنفسه أنه استوىٰ علىٰ العرش، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ من الذي سخر الشمس والقمر والنجوم؟ نقول: رب العالمين سبحانه، وكذلك هوالذي يغشي الليل والنهار، هٰذا الأمر الذي يقع في الليل والنهار دائما رب العالمين هو الذي يغشي الليل النهار، فيعرِّف ربّ العالمين نفسه بالصِّفة.

ولهٰذا قال وكيع رحمه الله تعالىٰ مقولة تكتب بماء الذهب يقول رحمه الله: هٰذه الصفات هي التي بها عرفنا الله، بهذه الصِّفات عرفنا الله بالصفات التي أخبر عن نفسه، علمنا أنه يعلم، وأنه يسمع، وأنه يبصر، وأنه يقدر، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وأنه سبحانه وبحمده بيده الأمر، وهو الذي يقلِّب الليل والنهار، بهذه الصفات وبما أخبر رب العالمين عن نفسه من صفاته وأفعاله عرفناه، فمن هنا نثبت ما أثبت الله، وننفي ما نفىٰ الله كما أننا نثبت ما أثبت الرَّسول ﷺ لربِّه، وننفي ما نفىٰ ﷺ عن ربِّه ونقف عند هٰذا.

هٰذا هو مسلك ومنهج أهل السُّنة وهو الذي عليه سائر المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم وعليه المهاجرون والأنصار والتَّابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة.

إذا أثبت ربِّي صفة أثبتها علىٰ الرأس والعين، وإذا نفىٰ أنفي إذا أثبت الرَّسول ﷺ أثبت؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ، وإذا نفىٰ أنفي، فهٰذا هو المسلك، هٰذا مسلك راجع إلىٰ شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله، إذْعاني بأنه لا إلٰه إلا الله يعني أن أقر وأصدِّق وأثبت ما أخبر الله عز وجل به عن نفسه.

وشهادتي بأنَّ محمَّدًا رسول الله تعني أن أصدقه ﷺ في جميع ما يخبر، هٰذا هو مسلك فأهل السنة، فأهل السُّنة يثبتون الصِّفات وينفون المشابهة، يقولون: إذا أثبتناها فإننا نقول: هٰذه الصِّفات التي أثبتنا ليست مثل صفات المخلوقين؛ لأن الخالق نفىٰ هٰذا عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فلما نفىٰ في أول الآية أثبت في آخرها فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورىٰ]، فهٰذه قاعدة في الأسماء والصفات، هٰذه الآية هي القاعدة في الأسماء والصفات، نثبت الاسم والصِّفة وننفي المماثلة، هٰذا هو مسلك أهل السنة والجماعة، وهو المسلك الوسط الذي دلَّ عليه النص.

يقابل هٰذا المسلك مسلكان منحرفان:

المسلك الأول مسلك من يسمّون بالمعطِّلة، والمعطلة هم نفاة الصفات الذين ينفون ما أثبت الله، أو ما أثبت رسول الله ﷺ، وأوّل من عرف عنه النفي الشّقي الجعد بن درهم، لا يوجد في أهل الإسلام من نفىٰ قبل الجعد بن درهم، ثم تلا الجعد بن درهم مقولته الخبيثة علىٰ الجهم بن صفوان وهو الذي تنسب إليه طائفة الجهميّة وقد تأثر بقول الجهم بن صفوان طوائف من أهل الضّلال كثيرون جدا حتىٰ من خصومه كالمعتزلة فإنهم تأثروا به، مع أنهم خصومٌ له، وهكذا تأثر بالجهم بن صفوان جميع من نفىٰ صفات الله أو نفىٰ بعضها، فتأثّروا بقول الجهم بن صفوان وشيخه الجعد بن درهم في نفي ما أثبت الله، قالوا: لأنا لو أثبتنا لله صفات لشبّهنا الله بالمخلوقين، قال أهل السنة: من قال: إن إثبات الصفات يعني تشبيه الخالق بالمخلوق، يجب أن تثبت الصِّفة وتنفي عنها المماثلة كما ذكرنا في هٰذه القاعدة العظيمة في الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ تضمّنت الآية نفيًا وإثباتًا في نفس الوقت، نفت المماثلة وأثبتت السّمع والبصر واسم السَّميع والبصير.

فأبىٰ الظّالمون المعتدون المجترئون علىٰ الله إلّا أن يردُّوا الصِّفات مع وضوحها في القرآن وجلائها وكثرة تردُّدها، كثيرًا ما تتردَّد الصفات في القرآن، ومع ذلك يردُّونها عياذا بالله، فهؤلاء في طرف ينفون ما أثبت الله.

قابل المعطلة هؤلاء طائفة تدعىٰ المشبهة وأوائلهم يعودون إلىٰ الرافضة عبد الله بن سبأ ومن تلاه كجابر الجُعفي وداود الجواريبي.. وأمثالهم من المشبِّهة الذين قالوا: نحن نثبت الصفات ونزيد نبالغ فنقول: إن هٰذه الصِّفات -عياذًا بالله من هٰذه المقولة- مثل صفات الإنسان تمامًا.

لاحظ الطَّرفين الآن:

طرف ينفي الصفة، ينفي ما دل عليه القرآن والسنة؛ يقول: أخاف من التشبيه.

وطرف آخر يقول: أنا لا أثبت فقط، أنا أثبت وأشبه.

وكلا الطرفين لاشك بعيدان عن محجَّة الحق كلَّ البعد، وبعيدان عن الوسط الذي عليه أهل السنة رحمهم الله.

ولهٰذا قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إن اعتقاد أهل السنة يُضرب له المثل بقول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾[النحل] فاللَّبن النظيف يخرج من بين الفرث والدَّم، قال: هٰذا اللَّبن النَّافع السَّائغ للشَّاربين يُضرب لاعتقاد أهل السنة به المثل، واعتقاد أهل الغلو واعتقاد أهل الجفاء يُضرب لهم المثل بالفرث والدم، فتجد أنَّ الحق وسطًا بين مقولة أهل الضلال هؤلاء وبين مقولة أهل الضّلال الآخرين، فمقولة المشبهة مضادة كل المضادة لمقولة المعطلة، ولهٰذا قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: خرج من ترمذ بلد يدعىٰ ترمذ رأيان خبيثان مقاتل مشبه وجهم معطل:

الأول: يشبه صفات الله بصفات المخلوقين.

والثاني: ينفي عن الله ما وصف به نفسه.

فقال: إن هذين القولين الخبيثين خرجا من بلدة ترمذ من رجلين منها أحدهما مقاتل والآخر الجهم.

وبذلك نعرف أن قول أهل السنة في الأسماء والصِّفات هو القول الوسط بين مقولة المعطِّلة وبين مقولة المشبِّهة.

نموذج آخر، نأخذ مثالا آخر يوضح وسط أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ بين أهل الضلال وبين أهل الجفاء،

المثال الآخر ما يتعلق بآل بيت النبي ﷺ وبالذات ما يتعلق بعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه وأَرْضَاهُ–.

فإنّ عليًّا رضي الله عنه يقول فيه أهل السنة رحمهم الله: إنه صحابي كريم، وهو أحد الخلفاء الراشدين، وهو رابع الصّحابة الكرام في الفضل، أفضل الصَّحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ويعتقدون أنه قُتل شهيدًا رضي الله عنه، وأنه علىٰ الحقّ، وأن حبه دين وإيمان مثل حبِّ جميع أصحاب النبي ﷺ، فنوالي جميع أصحاب النبي ﷺ ولا نفرّق، وما وقع بينهم رضي الله عنهم مما وقع نعتقد أنهم كانوا فيه مجتهدين: إمَّا مجتهد مصيب له أجران، وإمَّا مجتهد مخطئ له أجرٌ واحد.

ونترضّىٰ عنهم أجمعين، ولا نتحزَّب لأحد منهم علىٰ حساب أحد؛ بل نواليهم جميعًا – رضي الله عنهم وأرضاهم–، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «أبو بكر في الجنَّة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزُّبير في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة وعبد الرَّحمٰن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة» فكلهم من أهل الجنة بشهادة النبي ﷺ، فلمَّا وقع ما وقع بين علي وبين طلحة والزُّبير – رضي الله عنهم أَجْمَعِين– علمنا أنهم بشهادة النّبي ﷺ من أهل الجنَّة، وأن ما حصل منهم كان اجتهادًا أرادوا به الخير جميعا، فأصاب من أصاب منهم وهو علي رضي الله عنه فحصّل الأجرين، وأخطأ من أخطأ منهم كالزبير وطلحة فحصّل أجرا لا شك فيه؛ لأنّهم اجتهدوا والنّبي ﷺ أخبر أن الحاكم إذا حكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، ثم كيف نحكم في أناس من أهل الجنة، كيف أتعصب لأحد علىٰ حساب أحد، وكلُّهم بنص الحديث في الجنة، وكلهم من السَّابقين الأولين، ولهٰذا نترضىٰ عنهم أجمعين، ونعتقد أنهم جميعا أرادوا الخير رضي الله عنهم، ومنهم علي رضي الله عنه.

علي رضي الله عنه صار فيه طائفتان متضادَّتان متصادمتان:

الطائفة الأولىٰ: تسمىٰ طائفة النَّواصب وأشهرهم وأعتاهم وأخبثهم الخوارج الذين وصل بهم بغضه والبراءة منه والعياذ بالله إلىٰ حد الحكم بكفره – رضي الله عنه وأرضاه وأجله الله وأكرم مقامه عمّا يقول هؤلاء الجهلة ورضي عنه ورحمه–، قالوا: إنه كفر وارتدّ نعوذ بالله، ولهٰذا استمرُّوا حتىٰ قتلوه، فلما خرج رضي الله عنه وكان من عادته إذا خرج إلىٰ صلاة الفجر أن يقول: الصّلاة الصلاة يوقظ الناس؛ لأن صلاة الفجر تكون عادة بعد الليل والناس يكون عادة منهم من يكون نائمًا فكان يوقظ الناس، هٰذه طريقته رضي الله عنه، وهٰذا هدي من هدي الخلفاء الرَّاشدين، فكمن له عدو الله عبد الرَّحمٰن بن ملجم أحد الخوارج، فلمَّا خرج رضي الله عنه يصلي انطلق نحوه هٰذا الخبيث وضربه بالسَّيف علىٰ رأسه، فدما رأسه حتىٰ سال علىٰ لحيته، وتحقق قول النَّبيّ ﷺ في علي أشقاها؛ «أشقىٰ شخص في هٰذه الأمَّة من يضربك علىٰ هٰذه» يقصد علىٰ هامة رأسك «حتىٰ يسيل الدَّم علىٰ هٰذه»، وكذلك كان؛ فقد كانت ضربة ابن ملجم علىٰ الرأس –لم يطعنه في بطنه–

حتىٰ سال الدم علىٰ لحيته، فقال بعض المسلمين: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين، فقال هٰذا الخبيث: لا والله لقد جعلت السَّيف في السُّم شهرًا كاملا، حتىٰ يتحقق من سريان السم في جسده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحيث لو نجا من الضربة لا ينجو من السم فبقي مدة ثم لقي ربه إلىٰ الجنة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرْضَاه–، انظر كيف بلغ بغض الخوارج لعلي، بلغ بهم الحدّ أن يقتلوا رجلًا من أصحاب النبي ﷺ، وأن يقتلوا رجلًا زوجه النبي ﷺ بنته ولا يزوج رسول الله ﷺ أيّ أحد كما تعلم، وقتلوا رجلا من المهاجرين ومن السَّابقين ومن المجاهدين في سبيل الله، يتقرَّبون إلىٰ الله بذلك حتىٰ قال عمران بن حطان أخزاه الله، شاعر الخوارج، يمدح عبد الرَّحمٰن بن ملجم:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ عند الله رضوانا

إنّي لأذكره يومًا فأحسبه ... أوفىٰ البرية عند الله ميزانا

لماذا؟ لأنه قتل عليا، سبحان الله عما يقول الظالمون، ما أعجب عمىٰ البصيرة، يقتل عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويكون أوفىٰ البريَّة عند الله ميزانا، فرد عليه شاعر السنة بقوله:

يا ضربة من شقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ عند الله خسرانا

إني لأذكره يومًا فألعنه لعنًا ... وألعن عمران بن حطَّان

يعني ردًّا علىٰ مدحه له، كيف يكون أوفىٰ البرية ميزانا من يقتل صاحب النبي ﷺ، فالخوارج تكرهه إلىٰ اليوم، والإباضيَّة يعادونه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من فلول الخوارج الأخيرة الآن الإباضية وهم يعتقدون أن ما فعله الخوارج الأوائل حقّ، من الذي قابل الخوارج؟

قابل الخوارج الروافض الذين يتسمَّون باسم الشيعة، فغلو في علي غلوا منكرا، حتىٰ إنك إذا قرأت كتبهم قلت: سبحان الله، ماذا أبقىٰ؟ هؤلاء يعتقدون والعياذ بالله أنه يجيب الضر ويجيب من دعاه، وأنه قسيم الله بين الجنة والنار عياذا بالله، يدخل الجنة من شاء ويدخل النار من شاء، ويتقرَّبون بالسُّجود لقبره الذي يظنونه ويتوهَّمونه، وإلا فليس قبرًا لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن عليا دفن في بيت الإمارة خشية من أن تنبشه الخوارج، ولم يُعرف قبره، فتجد أنهم يأتون إلىٰ ما يرون أنه قبر علي أو قبر الحسين ويسجدون سجودًا كما تسجد لله ربِّ العالمين في الصلاة يسجدون هم ويرفعون أيديهم ويدعونه دعاء، وإذا قيل: لماذا تفعلون هٰذا؟ قالوا: نحن نحب عليًا وهٰذا حبٌّ له.

كل هٰذا الشرك حب! هٰذا معنىٰ الغلو، فهٰذا معنىٰ قولنا: إن قول أهل السُّنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الوسط بين مقولة الخوارج الذين يرون أنه كافر وأنه ارتد واستحلوا قتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبين مقولة الروافض الذين بلغ بهم الحال أن يعبدوه عبادة صريحة من دون الله، يدعونه، يسجدون له، مع أنه كما قدمت قبل أمس هو الذي قتل أوائل الرَّوافض هو الذي أحرقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخدَّ لهم أخاديد وجعل فيها الحطب وأضرم فيها النّار وقذفهم فيها لما غلىٰ فيه، فأول من عاقب علىٰ الغلو في علي هو علي نفسه، هو أوَّل من عاقب الغُلاة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرْضَاه.

هٰذا معنىٰ قولنا: إن أهل السنة وسط، فأهل السنة قولهم وسط بين قول الروافض وبين قول الخوارج، أين إنسان يقول في عليٍّ: إنه كافر وإنه حلال الدم. من إنسان يقول: إنه يُدعىٰ من دون الله ويسجد له ويعبد من دون الله عبادة.

فالحاصل أن قول أهل السنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بين غلو الرَّوافض وبين جفاء وقلَّة حياء الخوارج.

المثال الثالث ولعلنا أن نختم به، ثم نفصل بإذن الله عَزَّوَجَلَّ مسائل الإيمان من الغد مسائل الاعتقاد.

المثال الثالث الذي يمَثَّل به علىٰ وسطية أهل السنة في الاعتقاد ما يتعلق بصاحب الكبيرة، صاحب الكبيرة الذي يقع منه الجُرم الكبير كالزِّنىٰ وشرب الخمر والعياذ بالله وأمثاله.

قول أهل السنة فيه هو القول الوسط يقولون: إن صاحب الكبيرة علىٰ خطر عظيم ويُخشىٰ عليه من العقوبة، والله عَزَّوَجَلَّ قد توعد هٰذا المجترئ علىٰ معاصيه بالكبائر توعَّده بالعقوبة تارَّة بالنار، وتارة أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه يعذب في قبره، وتارة يعذب في عرصات القيامة، فالكبيرة خطرة جدا علىٰ صاحبها، إذا لقي الله بها فإنه علىٰ خطر؛ ولكن مع ذلك كلِّه هو تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وله ذلك سبحانه وبحمده، وليس لأحد أن يعترض علىٰ ربِّ العالمين، وإن شاء عاقبه، فهو مسلم من المسلمين، ما دام من أهل لا إلٰه إلا الله ومن أهل الصلاة إن كان مصليا وموحدا ليس بمشرك فإنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه؛ ولكنهم يحذِّرون صاحب الكبيرة ويقولون: إنَّ عليك أن تتوب، وإنك إن لقيت الله بهذا الحال فيخشىٰ عليك من العذاب الذي ذكره الله وذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجمعون الحقَّ كلَّه أنه من المسلمين؛ ولكنه يُخاف عليه من العقوبة، وقد دل علىٰ هٰذا آيات كثيرة جدًّا في القرآن منها الآية العظيمة المحكمة التي بيَّن الله فيها حال المشرك وحال غيره فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فمن لقي الله مشركا قد صرف العبادة لغيره فهٰذا لا نصيب له في المغفرة، قد حكم الله بأنه لا يغفر له، وإذا لم يغفر له فهو من أهل النَّار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن عيسىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة]، فمن لقي الله بالشِّرك الأكبر فإنَّه من أهل النار دل علىٰ هٰذا نصوص كثيرة، ثم قال تعالىٰ بعد أن قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني ما دون الشرك ﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ وكل ذنب مهما عظم فإنه دون الشِّرك أعظم الذنوب علىٰ الإطلاق هو الشرك.

قال أهل العلم رحمهم الله: الذنب الذي بعد الشِّرك في الزجر وفي الفضاعة هو قتل النفس التي حرَّم الله، فهو أعظم الكبائر بعد الشِّرك، وهكذا هناك كبائر أخرىٰ مثل التولي يوم الزحف وعقوق الوالدين وشرب الخمر والزِّنىٰ، كل هٰذه من الكبائر، فمن لقي الله بها فهو حسب هٰذه الآية تحت مشيئة الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ الأمر إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما دون الشِّرك إلىٰ الله إن شاء عذب وإن شاء غفر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هٰذا هو القول الحقُّ وهو الوسط الذي دلت عليه النصوص وهو قول يزجر صاحب الكبيرة عن كبيرته من جهة، ومن جهة أخرىٰ لا يقنِّطه من رحمة الله فيجتمع الأمران، لا يكون عنده قنوط وفي الوقت نفسه يظل خائفا من كبيرته وجريريه.

من الذين ضادُّوا أهل السنة في هٰذا الباب؟ الذين ضادوا أهل السنة في هٰذا الباب طائفتان:

الطائفة الأولىٰ: طائفة المرجئة، طائفة المرجئة ركَّزوا علىٰ مسألة، قالوا: إن الإيمان هو مجرّد الاعتقاد والتصديق عياذا بالله، فقط عندهم الإيمان هو هٰذا، وبالتالي قالت طوائف من المرجئة: ما دام الإيمان في

الاعتقاد والتَّصديق القلبي فقط فالمعاصي لا تضرُّ، إذا لقي الإنسان ربّه بالمعاصي مهما كانت، وهو من أهل الإسلام فإنَّ هٰذه المعاصي في زعمهم لا تضرُّه، لماذا لا تضره؟ قالوا: لأنّ الإيمان لا يضرُّ معه معصية، كما أنَّ الكفر لا تنفع معه طاعة، هٰذه قاعدتهم العوجاء يعني قاسوا كون الكفر لا ينتفع الكافر بالطاعة، قالوا: كذلك المؤمن لا تضره المعصية، حتىٰ قال شاعرهم عياذا بالله قال:

فأكثر ما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم علىٰ كريم

نعوذ بالله يجرِّئ الناس علىٰ المعصية يقول: ربك كريم كثِّر من المعاصي إذا لقيته سيغفر لك، فلماذا تتردد في الدنيا عن المعاصي، انظر إلىٰ تشجيع الناس علىٰ المعصية وتهوين الذَّنب عليهم، هٰذه هي طائفة المرجئة.

يقابل المرجئة تمامًا تيَّار يسمَّىٰ تيار الوعيدية، وهم الذين ركزوا علىٰ نصوص الوعيد التي فيها التخويف والتحذير من الذُّنوب، وهم الخوارج وتبعهم المعتزلة، فالخوارج ماذا قالوا؟ قالوا: إن صاحب الكبيرة كافر مرتدّ، فمن شرب الخمر فهو كافر، ومن زنىٰ فهو كافر، ومن عقَّ والديه فهو كافر، وقياس قولهم: أن من اغتاب غيبة علىٰ اعتبار أنّها من الكبائر فهو كافر، فمن سيبقىٰ علىٰ وجه الأرض في هٰذه الحال؟ بل قالت طائفة من الخوارج: إن الإصرار علىٰ الصَّغيرة وتكرارها هو الكبيرة وبالتّالي فإنه يكفر بها، فانظر الآن أولئك يجرِّئون الناس علىٰ الذُّنوب ويقولون: لا تضر الذنوب مع الإيمان، وهؤلاء يبالغون مبالغة منكرة في أمر الذنوب، ويوصلونها إلىٰ الكفر؛ يعني يجعلون الكبيرة كفرا، وبه تعرف أن قول هؤلاء باطل، وكذلك قول هؤلاء باطل، وأن الحقّ أن صاحب الكبيرة ليس بكافر كما تقول الخوارج بدلالة النُّصوص الكثيرة ومنها هٰذه الآية ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني ما دون الشِّرك ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهو ليس بكافر، ثم لو كان صاحب الكبيرة كافرًا مرتدًّا ماذا يلزم المرتد أليس القتل؟ يُقتل لماذا يُجلد شارب الخمر؟ لو كان شارب الخمر كافرًا مرتدًّا لما جُلد قتل، الزَّاني البكر غير المحصن، المحصن يرجم كما هو معلوم؛ لكن الزاني البكر يجلد ويغرَّب ولا يقتل، فلو كانت الكبيرة كفرا لقُتل كل صاحب كبيرة، يقتل في هٰذه الحالة؛ لأنه يكون مرتدًّا، فقول الخوارج قول باطل لاشك فيه.

وقول المرجئة أيضا قول باطل الذين يهوِّنون علىٰ الناس أمر المعاصي ويسهلون من أمرها حتىٰ قال شاعرهم ما قال عياذا بالله.

الآيات الدالة علىٰ الشفاعة ووقوعها مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾[النّجم] تردُّ علىٰ أي الطوائف؟ علىٰ الخوارج أو علىٰ المرجئة؟ علىٰ الطَّائفتين، وهٰذه من عظمة آيات القرآن، آيات الشفاعة ترد علىٰ الطَّائفتين، أول ما يرد في الذهن أن آيات الشفاعة ترد علىٰ الخوارج، وهٰذا صحيح؛ لأن الخوارج يقولون: صاحب الكبيرة إذا دخل النَّار يخلد فيها، ودلت النصوص علىٰ أن صاحب الكبيرة إذا دخل النار يأذن الله فيه بالشَّفاعة، فيخرج من النار، وفي الوقت نفسه دلَّت نصوص الشَّفاعة سواء في القرآن أو في السنة علىٰ الرد علىٰ المرجئة؛ لأن المرجئة يقولون: المعاصي لا تضر، خاصَّة غلاة المرجئة، ما دام الإنسان مؤمنا فإنَّها لا تضرُّه، نقول: بلىٰ

ضرته حتىٰ دخل النار بسببها واحتيج إلىٰ أن يُشفع فيه، فنصوص الشَّفاعة ترد علىٰ الطَّائفتين معا لا ترد علىٰ الخوارج فقط، تردّ علىٰ الخوارج وترد علىٰ المرجئة، وتؤكِّد علىٰ وسطية أهل السنة وصدق منهجهم في صاحب الكبيرة أنه مسلم وأن الكبيرة قد تضرُّه إذا شاء الله أن لا يغفر له، فهو مسلم لأنه يخرج من النار، أما لو كان كافرا فإنه يخلد فيها لا سبيل له للخروج، لا يمكن أن يخرج الكافر من النّار يستمر فيها عياذا بالله، وضرَّته الكبائر بخلاف ما قالت المرجئة الذين يقولون: لا تضر والله غفور وسيغفرها ويرحمك، ولا تضرّ مع الإيمان معصية، نقول: لا، ضرّت، هٰذه ضرته الآن فدخل النار حتىٰ شُفع فيه، فدل علىٰ أن قول المرجئة باطل وعلىٰ أن قول الخوارج أيضا باطل.

والأمثلة كثيرة نرجو أن تكون بإذن الله هٰذه النماذج كافية في الإشارة إلىٰ غيرها وإلا فالأمثلة كثيرة.

وهناك كتاب اسمه «وسطية أهل السنة» للدكتور محمد باكريم كتاب جيد ونافع وفيه نماذج من هٰذه الأمثلة وغيرها .

يوم غد -إن شاء الله- وبعد غد نبدأ في تفصيل أمور الاعتقاد نبدأ بمسألة الإيمان وما يرتبط بها بمسألة التوحيد، إن شاء الله ونطرق أيضا مسألة القدر، ومسائل أخرىٰ إن شاء الله.



[الدرس الخامس]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد..

فنذكر اليوم -بإذن الله عَزَّوَجَلَّ- تفصيلًا في المسائل الاعتقاديّة الكبرىٰ بعد أن أجملنا الكلام في معتقد أهل السُّنّة من جهة طريقتهم في التّعامل مع النّص، وهو يعبّر عنه بمنهج التَّلقي وبيَّنا أن منهجهم -رحمهم الله- هو المنهج الوسط الحقيقي لا الوسط المدَّعىٰ الذي يدَّعيه أهل الباطل وأهل الضَّلال.

وبيَّنا أن ذلك مربوط بالنّص، فإن هٰذه المسألة كما تقدّم عائدة إلىٰ النّص، فمن لزم النّص فهو الموفَّق وهو المهدي وهو المسدَّد وهو المتوسِّط، وهو الذي يستحق أن يوصف بخصال الخير، ومن كان بخلاف ذلك فهو بضد هٰذه الخصال.

نتكلم اليوم بإذن الله عَزَّوَجَلَّ عن التفصيل العام لجملة من المسائل الاعتقادية ويأتي في مقدِّمة هٰذه المسائل الاعتقادية مسألة الإيمان فإنّها مسألة من المسائل الكبار التي اعتنىٰ بها أهل العلم وبيَّنوا حقيقتها والنُّصوص الدَّالة عليها، وأفردوها بالتأليف فصنَّف عدد من أهل العلم مصنفات مستقلة موضوعها هو الإيمان فقط، كما صنّف ابن أبي شيبة وغيره من أهل العلم -رحمهم الله تعالىٰ- مصنفاتٍ باسم الإيمان لا تتناول إلا موضوع الإيمان من جهة حقيقته ومن جهة زيادته ونقصانه، والمسائل التي يأتي كلام عليها إن شاء الله، وتجد المصنفين من أهل العلم يعتنون بهذه المسألة عناية كبيرة ممَّن يروون السُّنة بالأسانيد، فتجد أحاديث الإيمان مثلا في «صحيح البخاري» في الكتاب الثَّاني من كتب الصحيح، أوَّل باب في الكتاب الثاني من كتب الصحيح الكتاب الأول كتاب بدء الوحي بدأ به؛ لأنه متعلق مناسب أن يبدأ بما يتعلق بالوحي وبدايته وكيف بُدِئ النبي ﷺ بالوحي وأنواع الوحي ونحو ذلك.

ثم بدأ مباشرة بأحاديث الإيمان وبوّب عليها جملة من الأبواب المهمَّة النّافعة التي يتبين من خلالها اعتقاد هٰذا الإمام الجليل، والأدلة الدالة علىٰ مقولة أهل السنة في باب الإيمان.

وممن اعتنىٰ بأحاديث الإيمان أيضا الإمام مسلم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- فإنه في «صحيحه» بدأ بما هو معروف بالمقدِّمة ذكر فيها سبب تصنيفه للكتاب وأقسام الرُّواة، وما ينبغي من التحرُّز من رواية الضَّعيف الباطل، ثمَّ بدأ بكتاب الإيمان مباشرة، بدأ أول ما بدأ بأحاديث الإيمان، ومن طريقة مسلم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- أنه لا يبوِّب بخلاف البخاري، البخاري يبوب فيقول: فضل الصَّلاة، وباب صلاة الظهر، باب صلاة العصر، أما مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيسرد والتبويب في «صحيحه» ليس منه وإنما اجتهد فيه حتىٰ يكون هناك تقسيم لهٰذه الأحاديث.

وهكذا اعتنىٰ بقية المصنفين بأحاديث الإيمان كالنسائي وأبي داود وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ من أئمة الإيمان.

واعتنىٰ بأحاديث الإيمان أيضا الذين صنفوا مصنَّفات عقدية خاصة كما تقدم وسموها باسم السنة، كما اعتنىٰ بذلك عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله، واعتنىٰ بها أيضا اللالكائي في كتابه «شرح أصول اعتقاد

أهل السنة» لأنهم يبيِّنون حقيقة الإيمان من خلال النُّصوص، فجهود أئمة الإسلام في بيان حقيقة الإيمان كبيرة واسعة جدا، وتجد الأبواب والأحاديث والآثار الدالة علىٰ معنىٰ الإيمان تجدها منثورة في هٰذه الكتب.

وممن صنف في الإيمان وحقيقته وبيانه عند أهل السنة والرد علىٰ خصومهم: الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه المشهور بالإيمان، وهو كتاب حافل ذكر فيه ما يتعلَّق بحقيقة الإيمان والأدلة عليه، وأقوال الطوائف في الإيمان مع ردِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عليهم في مواضع، فموضوع الإيمان من الموضوعات الكبيرة التي اعتنىٰ بها أهل العلم عناية يستحقها بهذا الموضوع؛ لأنه موضوع جليل الشأن إذ هو بيان لحقيقة الإيمان التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها أن نعتقدها وهو أيضا يتضمَّن؛ هٰذه الكتب تتضمن الرد علىٰ أهل المخالفة والشِّقاق والعناد من الطوائف الضالة التي ضلت في موضوع الإيمان.

يمكن أن يُقال: إن مسائل الإيمان المشهورة المعروفة هي علىٰ النحو الآتي :

أولا **حقيقة الإيمان** هٰذه المسألة هي أهم وأشهر مسائل الإيمان: حقيقة الإيمان عند أهل السنة.

الإيمان عند أهل السنة رحمهم الله حقيقة مكونة من أمور ثلاثة قول اللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح.

هكذا أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان، وهكذا بيَّنت النصوص بشأن الإيمان الذي نحن مأمورون به، الإيمان يتضمن هٰذه الأمور الثلاثة كلَّها، قول اللسان بأن ينطق الإنسان بلسانه، واعتقاد القلب بأن يجزم بقلبه بالمعنىٰ الحقّ، ويكون به صادقًا مخلصًا موقنا، وعمل الجوارح، لابد من هٰذه الأمور، فمن اختصر علىٰ واحدة لم تنفعه، ومن اقتصر علىٰ اثنتين لم تنفعه، ولا يكون الإيمان إلا هكذا مكونًا من حقائق من ثلاثة أمور هكذا حقيقته.

فأمَّا من أراد أن يفصل وأن يقول: إن الإيمان اعتقاد فقط، أو أن الإيمان قول واعتقاد فقط، فقد فرّق بين ما جمعه الله: من قول اللسان واعتقاد الجنان أي القلب وعمل الجوارح والأركان، ومن أتىٰ بالإيمان بحقيقته المذكورة فإنه قد أتىٰ به كما ينبغي، ومن أخل به فقد ابتدع فيه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فيما يتعلق باعتقاد القلب،المراد منه كما سيأتي أن يكون القلب قد انعقد وجزم بالحقائق التي أُمر العبد أن يؤمن بها، وعلىٰ رأسها الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.

ومعنىٰ نُطق اللسان أن ينطق القادر علىٰ النطق بلسانه فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

ومعنىٰ العمل بالجوارح المجيء بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به مع الكفّ عمَّا نهىٰ عنه.

وهٰذا الإيمان شعب، يعني أجزاء كما ثبت في الحديث الصحيح «الإيمان بضع وستُّون شعبة فأعلاها قول لا إلٰه إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطَّريق، والحياء شعبة من الإيمان» وهٰذا الحديث يبيِّن معنىٰ قول أهل السنة: إن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، فبيَّن ﷺ أنَّ الإيمان شعب، منه شعبة تكون في القلب وهي الحياء، ومنه شعبة تكون في اللسان وهي النُّطق، ومنه شعبة تكون في الجوارح وهي إماطة الأذىٰ عن الطَّريق.

ثم إن هٰذه الشُّعب تتفاوت من حيث الحكم والأهميَّة فمن الشُّعب ما لو لم يأت به العبد لكان قد فاته خير دون أن يأثم، مثل شعبة إماطة الأذىٰ فإذا ترك إماطة الأذىٰ فإنّه قد نقص منه شيء من هٰذه الشّعب؛ لكنها شعبة ليست مثل الشّعب الأخرىٰ.

وهناك شعب ولا يصلح ولا يستقيم الإيمان أصلًا إلّا بها مثل شعبة النُّطق بلا إلٰه إلا الله، في قوله ﷺ: «فأعلاها قول لا إلٰه إلا الله»، من لم يأت بهذه الكلمة ويتشهد شهادة الحق فإنه لا يعد مسلما أصلًا؛ لأن هٰذه الشُّعبة من الشُّعب الواجبة التي لا يمكن أن يكون الإيمان موجودا إلا بها، فمن أبىٰ أن يتشهد هٰذه الشهادة فإنه لا يكون مسلمًا، وهٰذه شعبة باللسان.

ومن الشُّعب العملية التي إذا افتقدها الإنسان لا يكون أيضًا مسلمًا شعبة الصَّلاة فمن لم يكن من المصلِّين فإنه ليس بمؤمن بدليل قوله ﷺ: «العهد الذي بيننا الصلاة فمن تركها فقد كفر»، وعند هٰذه المسألة نحتاج إلىٰ وقفة مهمَّة وهي أن بعض النَّاس يقول: إمَّا جهلًا -وهٰذا أحسن ما يحملون عليه- أو تجاهلًا إن تكفير تارك الصَّلاة هو قول الإمام أحمد وحده، وهٰذا افتراء علىٰ العلم في الحقيقة، وخطأ بالغٌ ظاهر فإن تكفير تارك الصلاة الذي قال به أحمد قد قال به اتِّباعا لمن سلف من أهل العلم قبله رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول عبد الله بن شقيق العقيلي التَّابعي الجليل: لم يكن أصحاب النَّبيّ ﷺ يرون شيئًا من الأعمال تركه كفرٌ إلا الصَّلاة. وهٰذا يعني نقل قول الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من خبير بأقوالهم، إذ هو من التَّابعين ما كانوا يرون شيئًا من الأعمال يُكَفَّر صاحبه إذا تركه إلا الصلاة، بمعنىٰ أن أحدًا لو ترك الصِّيام في رمضان فإنه وإن أثم ووقع في جرم عظيم إلا أنَّ الصحابة لا يكفرونه إذا كان تركه هوًىٰ لا حجودا.

أما إذا ترك الصلاة فإنَّهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجزمون بكفره، وفي كتاب «تعظيم قدر الصَّلاة» للإمام محمَّد بن نصر المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كتاب جليل حافل من أحسن ما صُنِّف في الصلاة وفي الإيمان، نقل الإمام محمد بن نصر أن تكفير تارك الصلاة قول جمهور المحدثين؛ يعني أكثر أهل الحديث علىٰ تكفير تارك الصَّلاة؛ لأن الصَّلاة شعبة من شعب الإيمان العملية التي إذا تُركت انتقض عقد من تركها، وهٰذا يعني أنَّ جماهير المحدِّثين قبل أحمد وبعد أحمد علىٰ هٰذا القول.

فأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يقل هٰذا القول من تلقاء نفسه، إذا رجعت إلىٰ ترجمة محمَّد بن نصر المروزي، وإذا بهم ينصُّون علىٰ أن محمد بن نصر أعلم الناس بحكاية الخلاف عن الصحابة والتابعين؛ يعني من أعرف الناس باقوال الصحابة وأقوال التابعين، فإذا قال: إن جمهور المحدثين علىٰ هٰذا القول فإنه لا يقوله من فراغ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولهٰذا روىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عن عدد غفير من السَّلف تكفير تارك الصّلاة قبل أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

فالقول بأن هٰذا قول أحمد يتعجَّب الإنسان منه، هٰذا قول أناس قبل أحمد، ولهٰذا روىٰ اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» جملة من الاعتقاد عن عدد من أهل العلم يروي مثلًا عن سفيان الثَّوري، يروي عن أحمد، يروي عن ابن جرير، يروي عن أبي زرعة الرَّازي، يروي عن ابن عيينة، يروي عنهم جملة من مسائل الاعتقاد، يكتبونها أو يُملونها علىٰ أحد، يذكرون أهم مسائل الاعتقاد، فتجد في بعض المنقول عن هؤلاء تكفير تارك الصَّلاة غير أحمد، فالقول بأن هٰذا القول قول أحمد وحده ليس بصحيح؛ بل هو قول الصحابة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا تأمل ما كان يفعل النبي ﷺ إذا أراد أن يغير علىٰ قوم، إذا أراد أن يهاجم قوما مكث ﷺ فإن سمع عندهم أذانا يؤذنون أمسك عن الإغارة؛ لأنهم مسلمون يصلون، وإن لم يسمع أذانا دل علىٰ أنهم غير مسلمين، إن لم يسمع أذانا أغار عليهم ﷺ وهذا في البخاري وغيره، ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ سبب دخولهم سقر النَّار أول جرم ذكروه ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾[المدثر]، ولهذا إذا جاء الله عَزَّ وَجَلَّ ورآه أهل الإيمان في القيامة، وهو الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ فيخرّ أهل الإيمان ساجدين هذه هي العلامة بينهم وبين ربهم كما في البخاري وغيره، العلامة التي بينهم وبين ربهم ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ فإذا رآه المؤمنون خرُّوا سجَّدا، أما أهل النِّفاق الذين كانوا يسجدون نفاقًا مع المسلمين فإن ظهورهم تكون كالصَّياصي كلما أراد أحد منهم أن يسجد انقلب علىٰ قفاه؛ لأنه كان منافقا فلا يسجد إلا أهل الصلاح الحقيقيين -جعلني الله وإياكم منهم- لا يسجد إلا أهل الصلاة الحقيقيين الصَّادقون في الدنيا، تأمل هذه الآية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ لكنهم ما كانوا يسجدون؛ لأنّ هذه هي صفات أهل الكفر، أنهم لا يصلُّون، ولهذا من فقه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لما ذكر أحاديث كفر تارك الصلاة ذكر حديثًا قد تستغربه، تقول: ما موقع هذا الحديث في أحاديث تارك الصَّلاة، وهو الحديث الذي يرويه بسنده، أن ابن آدم إذا قرأ آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي فقال: أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار.

ما علاقة هذا الحديث بأحاديث ترك الصَّلاة، كأنه يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: الشيطان أبىٰ أن يسجد سجدة فدخل النَّار، وتارك الصَّلاة أبىٰ أن يصلِّي فهو من أهل النار.

فالحاصل أن ترك الصلاة بلا أدنىٰ شك كفر علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم، وإن قال بعضهم رحمهم الله بأنه لا يكفر ما دام قد تركها متهاونًا؛ لكن الأمر كما ذكرت لك من قول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقول جماهير المحدثين في المراجع التي ذكرت مثل كتاب «تعظيم قدر الصلاة» وقد روىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ في صفحات عديدة تكفير تارك الصلاة عن غير واحد من السلف قبل الإمام أحمد.

فهذه المسألة من المسائل التي ينبغي أن يضبطها طالب العلم، وأن يعلم أن شعبة الصلاة شعبة من الإيمان التي إذا لم يأتِ بها العبد فإنه لا يكون مسلما لقوله ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة» فجعل عهدا ينتقض إسلام المرء إذا لم يأت بها «فمن تركها فقد كفر» هذا ما يتعلق بالشعب.

فالشعب منها شعب باللسان، ومنها شعب بالقلب، منها شعب تعمل بالجوارح.

هذه هي المسألة الأولىٰ في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة، حقيقة الإيمان عند أهل السنة رحمهم الله أنه قول واعتقاد وعمل.

الذين أخرجوا العمل من الإيمان هم المرجئة بجميع طوائفهم سواء الغلاة أو من لم يكونوا من غلاة المرجئة كلهم يزعمون أن العمل ليس من الإيمان.

وهٰذا في الحقيقة مردود بالنُّصوص الكثيرة التي بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ وبيَّن النبي ﷺ فيها أنَّ الأعمال من الإيمان، ومنها هٰذه الآية العظيمة في سورة البقرة، لمَّا كان المسلمون يصلُّون جهة بيت المقدس صلَّىٰ أناس من المسلمين مع النبي ﷺ في مكة قبل أن يهاجر وصلوا في المدينة نحوا من ١٦ شهرًا نحو بيت المقدس، ثم إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر بأن يتوجه إلىٰ مكة، وأن تكون القبلة إلىٰ الكعبة، فتساءل بعض الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الصَّلاة السَّابقة التي كانت إلىٰ غير الكعبة، فأنزل الله في القرآن قوله مبيِّنا أن تلك الصَّلاة لا تضيع التي اتَّجهوا فيها إلىٰ بيت المقدس، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ﴾ ما قال: صلاتكم ﴿لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣]، ما المقصود بإضاعة الإيمان التي نفاها الله؟ إضاعة الصلاة، يعني أنتم حين توجَّهتم إلىٰ بيت المقدس قد أطعتم الله فالله لن يضيع هٰذا عليكم، فأطلق علىٰ الصلاة الإيمان؛ لأن العمل جزء من الإيمان، ومن هنا قال ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه» وقال: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»، الصيام والقيام ضمن الأعمال، ومع ذلك وصفها بالإيمان، وهكذا أداء الخُمس من الغنائم في حال الجهاد، إذا انتصر المسلمون وحصلوا علىٰ الغنيمة فإنَّهم يجعلون خمسها في المصرف الذي بيَّن الله ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[الأنفال:٤١] الآية.

في حديث وفد عبد القيس الصَّحيح الثَّابت في «الصَّحيحين» وغيرهما أنهم أتوا النبي ﷺ فقال لهم: «آمركم بالإيمان بالله» ثم قال: «أتدرون ما الإيمان بالله؟» في رواية عند البخاري في (كتاب المواقيت) يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما ذكر حديث وفد عبد القيس، يقول: ثم فسره لهم، فسر الإيمان -بين معنىٰ الإيمان- «شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس مما غنتم» أنت تعلم أنَّ إقام الصَّلاة وصوم رمضان من ضمن أركان الإسلام، ومع ذلك جعلها هٰهنا ضمن الإيمان؛ لأنَّ الإيمان -كما قلنا- لابد من الأعمال فيه.

أمّا أن تقول: سأعتقد وأنطق بالحقّ دون أن أعمل فما أمر الله بهذا النوع من الإيمان، الله أمر بإيمان فيه قول واعتقاد وعمل، والذي يزعم أنه سيأتي بإيمان فيه قول واعتقاد دون العمل يقال: هٰذا الذي أتيت به ما أنزل الله به من سلطان، إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل.

فالحاصل أنَّ أهل السُّنة مطبقون -رحمهم الله- بإجماعهم علىٰ أنَّ الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولا يخالف في هٰذا إلا المرجئة الذين يخرجون العمل من الإيمان.

وبعضهم والعياذ بالله يقول: إن الإيمان هو مجرد الاعتقاد فقط، بمعنىٰ أنه لو اعتقد دون أن ينطق بلسانه في زعمهم فإنه يكون مسلما مع ما عرف من الأحاديث الكثيرة عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في مثل قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله» لابدّ من أن ينطق بلا إلٰه إلا الله، وكان الرجل إذا أتىٰ إلىٰ النبي ﷺ يريد الإسلام يقول: علِّمني الإسلام، أول شيء يبدأ معه ﷺ أن يأمره بنطق الشهادتين، فإذا نطق الشهادتين أمره بالصَّلاة ودلَّ بجلاء ووضوح علىٰ هٰذا حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا بعثه النبي ﷺ إلىٰ اليمن، وقال: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا» إذا أقروا بالشهادتين «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم

أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة» يعني الزَّكاة «تؤخذ من أغنيائهم وترد علىٰ فقرائهم» فتأمل قوله: «إن أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات» معنىٰ ذلك: إن قالوا: لا، نحن لا نقر بالشهادتين فإنهم لا يؤمرون بالصلاة لا يكونون مسلمين حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، فدل علىٰ أنه لابد من نطق اللسان.

ولا يعذر من نطق اللسان إلا الأخرس الذي لا يستطيع أن يتكلم فيشير بالشهادتين إشارة كما جاء عنه – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه أوتي له بجارية خرساء لا تتكلم يريد صاحبها أن يعتقها فقال لها: «أين الله؟» فأشارت إلىٰ السماء، قال: «من أنا؟» فأشارت إلىٰ النبي ثم إلىٰ السَّماء، يعني أنت رسول الله الذي في السماء، فأمره بعتقها لأنها لا تستطيع أن تنطق إنما تشير إشارة تفهم، أما من كان قادرا علىٰ النطق وقال: لا أنطق فإنه لا يعد مسلما؛ لأن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان.

هذه هي حقيقة الإيمان، وهي المسألة الأولىٰ من مسائل الإيمان.

المسألة الثانية من مسائل الإيمان وهي من المسائل الكبيرة أيضًا أن الإيمان عند أهل السنة يزيد وينقص، والزيادة في الإيمان ينبغي أن يُفهم بشأنها أمر أنَّ الزِّيادة تكون في الأعمال، وتكون أيضا في الاعتقاد واليقين، فمثلا الذي صام اليوم وقرأ خمسة أجزاء من القرآن وصلّىٰ الرَّواتب وصلّىٰ الضحىٰ وعاد مريضًا وتبع جنازة هو في عمله أكثر ممَّن لم يفعل هٰذا، وإنَّما أفطر هٰذا اليوم ولم يقرأ من القرآن شيئًا ولم يزر مريضا ولم يتبع جنازة، فهٰذا أكثر من هٰذا في العمل واضح، لكن ينبغي أن يُعرف أن الزيادة تكون حتىٰ في اليقين درجة اليقين وقوة اليقين تتفاوت، فيقين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أرسخ من الجبال وأقوىٰ، ويقين أمثالنا لا يقارن بيقين نبي الله ﷺ، عندنا بحمد الله إيمان وعندنا يقين؛ لكن من اعتقد أن اليقين الموجود عنده مثل يقين نبي الله ﷺ فقد كذب وأعظم الفرية، فيقين محمد ﷺ أعظم يقين وأقوىٰ إيمان، وهكذا يقين أصحابه رضي الله عنهم كأبي بكر وعمر لا يمكن أن نبلغ اليقين الذي وصلوه –رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُم وَأَرْضَاهُمْ- فإن يقينهم يقين راسخ ثابت، وهكذا الملائكة –صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن عجب أنَّ المرجئة يقولون: إن إيماننا مثل إيمان جبريل وميكائيل، سبحان الله العظيم، جبريل وميكائيل الذين قال الله فيهم وفي أمثالهم ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الأنبياء]، وقال: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأنبياء]، وقال ﷻ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[الأنبياء]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[التحريم]، كيف تقول: أن إيمانك مثل إيمان جبريل وميكائيل عياذا بالله، ولهٰذا روىٰ البخاري عن ابن أبي مُليكة رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ ما منهم أحد يقول: إيماني مثل جبريل وميكائيل. يقوله ابن أبي مليكة ردًّا علىٰ المرجئة الذين صاروا يقولون: إيماننا مثل إيمان جبريل وميكائيل، ما الفرق؟ يقول: أدركت أصحاب النَّبي ﷺ أدركت مثلهم ثلاثين ما منهم أحد يجترئ هٰذه الجرأة، فيقول: إن إيمانه مثل إيمان جبريل وميكائيل. يعني أن درجة اليقين تتفاوت، يذكر أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ مثالا يقرر موضوع اليقين وتفاوت الناس فيه يقولون: البصر: الناس إما أن يكون الواحد منهم إمَّا أعمىٰ لا يبصر، أو يقال: إنه

مبصر.

فهل الناس في قوة البصر سواء؟ لا، فمنهم من قَدِر علىٰ إبصار مسيرة ثلاثة أيام، الشيء الذي بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام علىٰ قدميه؛ يعني أكثر من أميال عديدة يراها، ولهٰذا بعضهم آتاه الله بصرًا يأتي إليه من أضاع إبله أو غنمه منذ يوم أو نحوه فيقول: انظر أين هي فيصعد علىٰ موضع مرتفع وينظر فيقول: هي عند البلد الفلاني من حدة بصره، هٰذا مبصره.

ومنهم من لا يرىٰ إلّا مسافة يسيرة، ومنهم من لا يرىٰ مثل هٰذا الزمن إلا بواسطة وسائل كالنظارات ونحوها، كلّ هؤلاء يطلق عليهم مبصرون، يرون، وليسوا بعمي غير مبصرين، ومع ذلك مع أنهم جميعا مبصرون، فقوَّة البصر عندهم تتفاوت، فكذلك الإيمان قوته في قلب أهله يتفاوت.

فمن الناس من يثبت علىٰ الإيمان في حال الضَّراء وفي حال السَّراء فإذا ظهر الإسلام وقوي وانتشر وانتصر واندحر الكفر والضّلالة فإنه ثابت، وإذا تغيرت الأحوال وغُلب المسلمون واشتد الخوف وخاف أهل الإسلام علىٰ بلدانهم من أعدائهم أن يدهموها، فإنك تجده ثابتًا كما أنه ثابت في حال القوَّة، فهٰذا ثابت الإيمان، قوي الإيمان يقينه راسخ، لا تضعضعه الفتن ولا تزعزعه الخُطوب، وهٰذا تثبيت الله لمن شاء من عباده ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[إبراهيم:٢٧].

ومنهم من لديه إيمان؛ لكنَّه لا صبر عنده، فإذا أوذي بدأ يتململ وبدأ يضعف وبدأ يجبن مع أنّه من أهل الإسلام ليس بكافر؛ لكن قوة اليقين عنده ليست راسخة.

وكل هؤلاء هٰذا الأول وهٰذا الثاني جميعهم من أهل الإيمان؛ لكن قوة اليقين تتفاوت وتختلف اختلافًا عظيما، ولهٰذا تأمل ما وقع في أُحد ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[الأنفال:١١] في المعركة وفي حال القتال يصيب المقاتل النّعاس حتَّىٰ أنه يخفق رأسه وأمامه العدو كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ أمان وهٰذا لأهل اليقين والقوَّة.

طائفة أخرىٰ كما في أحد كانوا أبعد شيء عن أن يصيبهم النّعاس لما عندهم من الخوف ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ بعيدون عن أن يصابوا بالنعاس﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾[آل عمران:١٥٤].

فالناس يتفاوتون في قوة الإيمان وفي درجته من جهة اليقين؛ ولهٰذا قال ﷺ: «والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» العلم يكون في القلوب، يقول: أنا أعلم بالله؛ يعني أن الصَّحابة عالمون بالله، لكن رسول الله ﷺ أعلم بالله منهم، وهٰذا يدلّ علىٰ تفاوت الإيمان القلبي؛ لأن العلم في القلب أن الإيمان يزيد وينقص من جهة قوة اليقين ورسوخه وثبات العبد في مقام القلب ويزيد أيضا وينقص من جهة الأعمال والآيات علىٰ هٰذا كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[التوبة] وقال تعالىٰ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[آل عمران:١٧٣]، والشيء الذي يزيد ويقبل الزيادة يقبل النقص كما هو معلوم، وجاء في هٰذا آثار عدة عن الصحابة وعن التابعين -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُم وأَرْضَاهُم - هٰذه هي المسألة الثانية؛ مسألة الزيادة والنقصان في الإيمان، فالإيمان يزيد وينقص .

المسألة الثالثة: إذا قلنا: هٰذا مؤمن بالله ينجّيه إيمانه فإنَّا نعني إيمان الموحِّد الذي عنده توحيد، أما مجرد التَّصديق بوجود الله، وأن الله هو الخالق وهو الرَّازق، فهٰذا يقرُّ به حتىٰ الكفَّار، كما دلّت علىٰ هٰذا النصوص الكثيرة من القرآن، الكفَّار لا يجحدون أنَّ الله هو ربّهم وأنّه خالقهم، يقرُّون بهذا، ويعترفون به كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في أكثر من آية بدأها سبحانه بقوله: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أكثر من آية في القرآن فيها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الزخرف]، ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[العنكبوت]، ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[الزخرف]، ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[العنكبوت]، وقال تعالىٰ في الآية الجامعة في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، انظروا هٰذه الأسئلة ﴿مَن يَرْزُقُكُم ﴾ الرِّزق، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ الملك، ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ الخلق، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ التَّدبير، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾فالكفَّار مقرُّون أن رب العالمين هو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم، والأدلَّة علىٰ هٰذا كثيرة جدًّا في القرآن، منها هٰذه الآيات التي سقنا وغيرها من الآيات، فهي كثيرة جدًّا، ولهٰذا إذا أجابوا بقولهم: إن الذي خلق هو الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يعني كيف يصرفون عن الحقّ، يقرون أن الله هو الذي خلقهم ويشركون معه غيره، يقرُّون أن الله هو الذي خلق السَّمٰوات والأرض ويعبدون معه غيره.

إذا أقروا أن الله هو الخالق وهو الذي يرزق وهو الذي يملك وهو الذي يدبِّر الأمر فإنَّ عليهم أن يعبدوه وحده، ولهٰذا قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[العنكبوت] الذي يجيب هٰذا الجواب أنّ الله هو ربُّه ومع ذلك يعبد مع الله شريكًا يقول العاقل: الحمد لله الأمر واضح جلي.

ثم حكم عَزَّوَجَلَّ علىٰ هؤلاء المشركين بأنهم لا يعقلون، لو كانوا يعقلون لأفردوا الله بالعبادة، إذ كيف يقرون أنه تعالىٰ هو خالقهم وهو رازقهم ثم يشركون معه غيره في العبادة.

فعلىٰ كل حال الإقرار بأن الله هو الرب وهو الخالق وهو الرازق هٰذا أمر موجود حتىٰ عند المشركين، كما دل علىٰ هٰذا النصوص الكثيرة من القرآن.

ولهٰذا بعض الناس يصف اليهود والنصارىٰ بأنّهم مؤمنون فيقول: كلُّنا مؤمنون، نحن نؤمن بالله، واليهود يؤمنون بالله، والنَّصارىٰ يؤمنون بالله. نقول: أي إيمان تريد؟ الإيمان الذي أمر الله به والذي ينفع وينجي يوم القيامة هو إيمان أهل التَّوحيد فقط، أمَّا مجرد الإقرار بالله والتَّصديق بوجوده وأنه هو الخالق الرازق، فهٰذا كان عند كفار قريش بنص الآيات الكثيرة التي سقنا، ومع ذلك كفَّرهم النبي ﷺ وقاتلهم واستباح دماءهم وأموالهم وأخبر أنهم من أهل النَّار مع أنهم مقرُّون بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو ربهم، ولهٰذا إذا نزل بهم العذاب يقولون: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[لقمان]، يعني عندنا إيمان بك وتصديق، فبين تعالىٰ أن هٰذا الإيمان لا يجدي، وإنما الإيمان الذي ينفع إيمان أهل التوحيد، وهٰذا يوجب أن نعرِّف التوحيد

الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به.

فنقول: التوحيد معناه إفراد الله بما هو من خصائصه سبحانه؛ والذي هو من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمور ثلاثة يجب أن يُخص بها دون شريك:

الأمر الأول: ربوبيته وأنَّه هو الرَّب وحده.

والأمر الثاني: يجب أن يُفرد في أسمائه وصفاته، فإنّها أسماء وصفات خاصة به تعالىٰ تليق به، لا يشابهه فيها أحد من خلقه.

والأمر الثالث: إفراده تعالىٰ بالعبادة، هٰذا معنىٰ التَّوحيد إجمالًا؛ إفراد الله بما هو من خصائصه.

خصائص الله هٰذه الأمور الثلاثة توحّده في ربوبيته باعتقاد أنه هو الرب وحده، وتوحده في أسمائه وصفاته باعتقاد أن أسماءه وصفاته تعالىٰ تليق به عَزَّوَجَلَّ وأنَّ أحدًا لا يمكن أن يماثل الله في أسمائه وصفاته، والأمر الثالث إفراده تعالىٰ بالعبادة دون شريك، فمن أفرد الله في هٰذه الأمور الثلاثة فهو الموحِّد، وهٰذه الأمور الثلاثة كما قال أهل العلم مشتبكة متلازمة بعضها مع بعض، إذ هي توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في هٰذه الأمور مع بعضها، فمن قال: سأفرد الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته دون عبادته نقول: لا ينفعك هٰذا؛ لأن هٰذه خصائص لله يجب أن تُفرد الله بها جميعًا.

وبذلك نعلم أن الإيمان الذي أمر الله به ليس مجرد الاعتقاد بأنه هو الرب وحده؛ بل الاعتقاد أنه هو الرب وأنه الخالق جزء من هٰذا الإيمان، ويجب علىٰ من آمن بالله ربا أن يوحِّده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الخاصية الثالثة وهي خاصية العبادة، فلا يعبد أحدًا سواه، فهٰذا معنىٰ الإيمان الذي أمر الله به، هو إيمان الموحِّد، أما الإيمان باعتقاد أن الله هو الرّب وهو الخالق، فهٰذا أمر قد فطر الله عَزَّوَجَلَّ عليه العباد فطرة كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «ما من مولود إلا ويولد علىٰ الفطرة» يولد علىٰ هٰذه الفطرة وأن الله هو خالقه وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ربّه فهٰذا أمر موجود مغروس في نفوس العباد، مفطورون عليه فطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم:٣٠]، وأرسل الرّسل -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وأنزل الكتب حتىٰ يوقظوا هٰذه الفطرة؛ لأن الرسل لا يعارضون الفطرة وإنما يحيون الفطرة، إذ الإنسان مفطور علىٰ أن الله هو ربه وأنه هو المستحق للعبادة، فإذا زل وضل عن هٰذا الأمر بعث الله الرسل وتقدمت الآيات المبينة لحقيقة دعوة الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأنهم عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين يأتون إلىٰ قومهم آمرين لهم بعبادة الله وحده، كما قال تعالىٰ عن نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٨٥]؛ هٰذه دعوة الرُّسل، يطلبون من الله أن يفردوا الله بالعبادة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾؛ أي من معبود ﴿غَيْرُهُۥ﴾ تعالىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[النحل:٣٦]، الطاغوت معناه ما عبد من دون الله، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء]، هٰذه مهمّة

الرسل أن يأمروا الناس بعبادة الله وأن يدعوهم إلىٰ إفراده تعالىٰ بالعبادة.

أما الإقرار بوجود الله فإنهم يقرون به هٰذه الطَّوائف الكثيرة من الكفار يقرُّون بأن الله هو ربهم كما تقدم في الآيات التي سقنا، حتىٰ إن قوم صالح لمّا أرادوا قتله وإضراره ماذا قالوا؟ أقسموا بالله ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[النمل] أقسموا بالله لأنهم مقرون بالله، وصالح -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يعلم أنهم مقرُّون بالله الذي حلفوا به وأقسموا به؛ لكنه أمرهم أن يفردوه بالعبادة وهم يأبون أن يفردوا الله بالعبادة، كما قال قوم هود لما قال لهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[الأعراف:٧٠] تريد أن نفرد الله فقط بالعبادة ونترك ما كان آباؤنا يعبدونه، أبوا لأنهم مشركون يعبدون الله ويعبدون غيره معه، وإلّا فهم مقرون بأن الله ربهم، وهٰذا هو معنىٰ لا إلٰه إلا الله الذي أمرت به الرُّسل أقوامهم، معنىٰ لا إلٰه إلا الله إفراده تعالىٰ بالعبادة، كما سيأتي -إن شاء الله- يوم غد في بيان معنىٰ الشهادتين وركني كل شهادة، وشروط شهادة أن لا إلٰه إلا الله وتفصيل ذلك من الأدلة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ كل هٰذا سيأتي يوم غد؛ لأنا إذا قلنا: إن الإيمان المقصود به إيمان الموحِّد، وإن لا إلٰه إلا الله معناها إفراد الله بالعبادة وأنه لا معبود حق إلا الله، فإن هٰذا يحتاج إلىٰ أن يبيَّن بالأدلّة وأن توضح الشروط أيضا بالأدلة، وأن نحيل طلبة العلم إلىٰ مراجع في هٰذا الباب حتىٰ يكون لديهم وضوح إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ في المسائل من حيث شرحها ومن حيث أيضا مراجع هٰذه المسائل إن شاء الله.

۞۞۞۞

[الدرس السادس]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آلِه وصحبه أجمعين..

أمَّا بعد..

فقد تقدَّم الكلام بالأمس علىٰ ما يتعلق بالمسألة الأولىٰ من مسائل الاعتقاد وهي مسألة الإيمان، وبيان حقيقتها عند أهل السُّنة، والمسائل التي وقع الخلاف فيها بين أهل السُّنة وأهل البدع من قبيل حقيقة الإيمان، ومن قبيل أمر الزِّيادة والنُّقصان فيه.

وذكرنا المسألة الثالثة المتعلِّقة بالإيمان المنجي عند الله عَزَّوَجَلَّ وهو إيمان الموحِّد، وبيَّنا أنَّ التَّوحيد معناه الجامع إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بما هو من خصائصه، وأن خصائصه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمور ثلاثة:

الأمر الأول: يتعلّق باستحقاقه وحده عَزَّوَجَلَّ للرُّبوبية.

والأمر الثاني: أن أسماءه وصفاته -تبارك وتعالىٰ- خاصَّة به لا يشابهه أحدٌ فيها، إذ له عَزَّوَجَلَّ المثل الأعلىٰ في السَّمٰوات وفي الأرض.

والأمر الثالث: ما يتعلَّق بالعبادة وأن الله -سُبْحَانَهُ وبحمده- هو المستحقُّ لأن تصرف له جميع العبادات إذْ إنَّ كلَّ أحدٍ سوىٰ الله مهما بلغ في المكانة فإنه عبد من عباد الله، يقول الله تبارك وتعالىٰ في الآية الجامعة العظيمة المبيِّنة لحقيقة من سواه يقول تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم]، فجميع من سوىٰ الله عبيد له -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ الملائكة الأنبياء الصَّالحون الجن الإنس، وبين تبارك وتعالىٰ أن جميع المخلوقات تسبحه، فقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[الإسراء]، وبين عَزَّوَجَلَّ أنَّه لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده، وكلُّ موضع في القرآن ذُكر فيه (لا إلٰه إلا الله)، (ما من إلٰه إلا الله)، فمعناه أنَّه لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له.

فإن هٰذه الكلمة العظيمة كلمة التَّوحيد (لا إلٰه إلا الله) من أعظم ما يحتاج إلىٰ أن يعرف المسلم معناها، وأن يتبيَّن ركنيها وأن يتبيّن شروطها حتىٰ يأتي بها ويلقىٰ الله بها علىٰ ما أراد الله، فإنَّك لو سألت كثيرا من الناس وقلت لهم: ما معنىٰ (لا إله إلا الله)؟ لربما عجز علىٰ أن يعبِّر عن معناها، وهٰذا أمر يُستغرب.

أرأيت يا أخي لو دعوت إنسانا إلىٰ الإسلام، ثم قال لك: أريد أن أسلم، ماذا أفعل؟ ماذا أقول حتىٰ أسلم؟ إنك ستقول له مباشرة: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فإذا قال: شهدنا ونطقنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ثم قال: يا أخي في الإسلام أنا الآن أخوك ولي عليك حقّ، حقُّ تعليمي، أول ما أريد أن تعلمني معنىٰ

هٰذه الشَّهادة التي نطقت ما هو؟ لا إلٰه إلا الله ما معناها؟ فما عساك أن تقول له؟ إن قلت: لا أدري، فهٰـذه مشكلة يقول: إلىٰ أي شيء دعوتني إذن؟ طلبت منِّي أن أنطق كلمات لا تعرف أنت معناها! كان الحـري بك أن تعرف معنىٰ الكلمة التي تلقِّنني، ثم إذا عرفتَ معناها أتيت إلي وقلـت: انطـق هٰـذه الكلمـة، فـإذا نطقتُ بها أخبرتني بمعناها، أمَّا أن أقول ما معناها، ثم تقول: والله أنا لا أعلم، لا أدري إذا لم تدر بـلا إلـه إلا الله فبأي شيء تدري، فينبغي أن يعـرف المسـلم معنـىٰ هٰـذه الكلمـة، وأن يعـرف طالـب العلـم مـن أمثالكم أكثر من معرفة الكلمة.

وهو الذي نريد اليوم إن شاء الله أن يعرف الأدلة علىٰ الكلمة، نحن نريد من طلبة العلـم لا أن يعرفـوا معنىٰ الكلمة، نحن نريدهم أن يدلِّلوا من القـرآن علـىٰ معنـىٰ لا إلـه إلاالله، لأنـك إذا قلـت لإنسـان إن معناها لا إلٰه إلا الله ثم قال: هات الدليل علىٰ أن معنـىٰ لا إلٰـه إلا الله هٰـذا المعنـىٰ الـذي ذكـرت، مـاذا تقول؟ طالب العلم يا إخوة ينبغي أن يكون راسخا ثابتًا، ولاسيَّما في أمور الاعتقاد.

فإنك لو سُئلت في مسألة من الفرائض والمواريث، قلت: والله أنا لا أعلم ولا غضاضـة في أن لا أعلـم يمكن أن تعرف من هو أعلم من،ي والمحاكم هُيِّئت لقسمة المواريث؛ لكن أن يقول لك: ما معنىٰ كلمة التوحيد التي ترددها منذ كنت صبيا، يلقِّنها لك والـداك وأنـت صـغير، لا تنطـق بـالحروف إلا بصـعوبة يلقنونك يسمعونك: لا إلٰه إلا الله وأنت صغير، حتىٰ بدأت تقولهـا متقطعـة، ثـم صـرت تقولهـا ثلاثـين أربعين خمسين سنة ملايين المرَّات قلتهـا في حياتـك، ثـم يقـال: مـا معناهـا؟ تقـول: والله أنـا لا أدري، سبحان الله كيف لا تدري بمعنىٰ لا إلٰه إلا الله؟ ينبغي أن تدري، وينبغي أن تدلِّل علىٰ معنىٰ لا إله إلا الله، فهٰذه الكلمة العظيمة لها معنىٰ، ولها ركنان، ولها شروط دلَّت عليه النصوص.

فأول ما يُقال في معنىٰ لا إلٰه إلا الله أن معناها: لا معبود حق إلا الله، معنىٰ لا إلٰه إلا الله هو: لا معبود حق إلا الله، وذلك أن كلمة الإله، من أي شيء اشتقَّت؟ اشتقت في اللغة من الفعل الثلاثي (ألِه، إلٰهة) وما معنىٰ (أله)؟ معنىٰ أله إلٰهة: عبد عبادة، فكلمة الإله معناها المعبود؛ لأن كلمة (الإله) مشتقة من الفعل (ألِهَ) الذي معناه عبد، فكلمة الإله علىٰ وزن فعال مثل كلمة كتاب علىٰ وزن فعال، وهي بمعنىٰ مألوه إلٰه بمعنىٰ مألوه، مثل كتاب بمعنىٰ مكتوب، فالإله معناه المعبود هٰذا معنىٰ كلمة الإله.

ثم إن هٰذه الكلمة العظيمة (لا إلٰه إلا الله) ينبغي أن نعطيكم إعرابها في اللغة، حتّىٰ يضبط طالب العلـم ما يتعلق بمعنىٰ الكلمة وهو الإله مفردة، الإله ما معناها لغة، ويعرف إعراب الكلمة من حيث اللغـة، ثـم يعرف الأدلة علىٰ معنىٰ الكلمة، ثم يعرف ركنا كلمة لا إلٰه إلا الله مع الأدلة عليهـا، ثـم يعـرف الشُّـروط شروط لا إلٰه إلا الله مدللا عليها حتىٰ يرسخ ويثبت.

فإذا قيل: ما معنىٰ لا إلٰه إلا الله؟ قال: هٰذا معناها وهٰذا الدَّليل عليها، وهٰذا معنـىٰ الكلمـة لغـة، وهٰـذا إعرابها، وهٰذه شروطها، وهٰذه أدلة شروطها؛ لأن هٰذا العلم أعظم علم ينبغـي أن يُعـرف علـم الاعتقـاد، وهٰذه الكلمة الحق (لا إلٰه إلا الله) أصدق كلمـة علـىٰ الإطـلاق، فكـان حريـا بـالمؤمن أن يعتنـي بهـذه

الكلمة، ولهٰذا صنف بعض أهل العلم في معنىٰ (لا إله إلا الله) بالذّات صنفوا بعض المصنفات حتىٰ يدلّلوا علىٰ معناها ويبينوه ويوضحوه.

فيقال: إعراب هٰذه الكلمة (لا إلٰه إلا الله)،

لا: هي (لا) النافية للجنس، تدخل علىٰ الأسماء، مثل ما تقول: لا رجل في الدار، فتدخل علىٰ الأسماء لا علىٰ الأفعال ، هناك لا النّافية ولا النَّاهية علىٰ الأفعال، أما (لا) هنا هي لا النافية للجنس تنفي جنس ما ذكر نفيه فيها، هٰذه الكلمة لها اسم ولها خبر، اسمها هو كلمة إلٰه.

إلٰه : اسم (لا) منصوب وعلامة نصبه الفتحة؛ لأنك تقول: لا إلهَ إلا الله،

أين الخبر ؟ الخبر محذوف، ولابد أن يقدَّر يكون فيه تقدير لهٰذا الخبر المحذوف، هٰذا الخبر المقدَّر، قدَّره أهل الشِّرك بتقدير خطير جدًّا، ولهٰذا حرصنا علىٰ إعراب الكلمة، وقدَّره أهل الحق بتقدير دلَّ عليه القرآن، فقولنا: (لا إلٰه) الخبر تقديره (حق): لا إلٰه أي لا معبود حق إلا الله.

هٰذا التقدير ينبغي أن يُدلل عليه؛ لأن أمور الاعتقاد كما ينبغي أن تعلم يا أخي ينبغي أن ينشَّأ طلبة العلم فيها علىٰ أمرين اثنين:

الأمر الأول الدليل، فلا يقولون معنىٰ إلا دل عليه القرآن أو السنة أو بينه السلف، أوَّل ما ينبغي أن يُنشأ عليه طلبة العلم أن ينشَّؤوا علىٰ الدليل في أمور الاعتقاد؛ لأن أمور الاعتقاد ليست من اجتهادي ولا من اجتهادك إنما تتلقىٰ من النصوص فكان من المتعين أن يدلل عليها، وهٰذا أو ل ما ينبغي أن ينشأ عليه طلبة العلم.

الأمر الثاني الذي ينشأ عليه طلبة العلم في أمور الاعتقاد وبشكل خاص وفي أمور العلم عمومًا أن يرجعوا إلىٰ مراجع أصيلة عن السلف، وعن أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ، فهٰذه الكلمة (لا إلٰه حق إلا الله) إذا قيل لنا: ما الدليل علىٰ أن المحذوف المقدَّر هو كلمة (حق) نقول: دلَّ علىٰ هٰذا آيتان في القرآن:

الآية الأولىٰ: في سورة الحج ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾ هٰذه الآية الأولىٰ في سورة الحجّ.

الآية الثانية: قريبة منها وهي في سورة لقمان وهي قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠ ﴾ بينت الآية أنّ المحذوف المقدر هو حق ولن يتضح هٰذا إلا إذا شرح معنىٰ الآية.

أوَّلًا الدعاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ ما معناه؟ معناه يعبدون، فإن الدعاء في هٰذا الموضع وفي مواضع كثيرة جدًّا من القرآن يطلق ويراد به العبادة، ومن أبين وأوضح الأدلّة علىٰ هٰذا ما ذكر الله في سورة مريم عن إبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من قيله ﷺ لقومه تأمَّل الآية الأولىٰ ثم تأمل الآية الثانية، لمّا رأىٰ قومه مصرِّين علىٰ الشِّرك ورأىٰ عصيان أبيه قال: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾، ماذا قال الله في الآية بعدها: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا

يَعۡبُدُونَ﴾ [مريم]، فدل على أن قوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ﴾ معناه وأعتزلكم وما تعبدون؛ لأنه لما نفّذ ما وعد به قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ لأن معنى الدُّعاء هو العبادة، وقد نبَّه المفسِّرون في مواضع من القرآن على أن الدعاء في أكثر من موضع معناه العبادة، ودلّ على هٰذا الحديث الصَّحيح في قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، قال المفسرون: لِمَ أُطلق على الدعاء أنه هو العبادة مع أن ثمة عبادات أخرى؟ قالوا: لأن الدعاء من أعظم وأكبر العبادات فهو مثل قوله ﷺ: «الحج عرفة» مع أن الحج فيه مواقف في منى وفي مواقف في مزدلفة، وفيه أيضا في المسجد الحرام بجانب الكعبة هناك الطّواف وهناك السّعي بين الصّفا والمروة فلماذا قال ﷺ: «الحجُّ عرفة» قالوا: لأن عرفة هي أعظم وأهم الحجّ من أدرك عرفة أدرك الحجّ ومن فاتته عرفة فليس له حج، فلهٰذا أُطلق عليه الحج عرفة، ومثله قوله: «الدُّعاء هو العبادة» قالوا: لأن الدَّاعي يقوم بقلبه من الخضوع والذلة والاستكانة واعتقاد عظمة من يدعو أمور يعجز الإنسان عن أن يعبر عنها، فلا يرفع يديه داعيا إلا لمن اعتقد فيه الكمال المطلق والتصريف والقدرة على الضر والنفع، واعتقد في نفسه شدة فقره إليه وعظمة احتياجه إليه، وأنه خاضع ذليل بين يديه، ولهٰذا كان الدُّعاء من أعظم مقامات العبادة إذا صُرف لله، وصار الدعاء من أعظم وأقبح الشرك إذا صُرف لغير الله؛ لأن الدعاء كما قال ﷺ هو العبادة، عبادة عظيمة إذا رفعت يديك لله وسألته أن يكشف عنك ضُرّا أو أن يغفر لك ذنبا، انظر لما يقوم بقلبك من شدة الخضوع والذلة والاستكانة، كما ورد: «أسألك سؤال من خضعت لك رقبته وذُق لك عنقه، من خضع لك خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه»، يكون إنسان وهو يدعو يشعر بشديد الذلة بين يدي الله أن أنفه مرغم، وأن رقبته خاضعة لله عَزَّوَجَلَّ، ولهٰذا إذا دعا الإنسان ربّه صادقًا مضطرًّا أجابه؛ لعظم ما قام بقلبه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:٦٢]؛ لأن الدعاء يقوم في القلب من المعاني العظيمة للعبادة ما يكون الإنسان حريا أن تُقبل منه الدعوة، ولهٰذا كان معنى قول إبراهيم -عَلَيۡهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناه: (وأعتزلكم وما تعبدون).

نعود لآية الحجّ؛ لأن القرآن يفسِّر بعضه بعضا يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ ما معنى الدُّعاء؟ أي العبادة، أي: ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يعبدون، أيًّا كان هٰذا المعبود هو الباطل، عد إلى (لا إله إلا الله) وخذ هٰذا المعنى وقارنه بها (لا إلٰه) علمت أنّ كلمة الإله معناها المعبود، (إلا الله) ، يعني لا إلٰه حقّ، لأن عبادة ما سوى الله باطل لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ما يعبدون من دونه ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ فدلَّ على أن المحذوف المقدَّر هو كلمة حقّ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ سبحانه وبحمده.

فـ(لا إلٰه) معناها لا معبود حقٌّ (إلّا الله) وحده لا شريك له، ولهٰذا تأمل هٰذه الآية العظيمة الجليلة الكبيرة في سورة آل عمران، وانظر إلى مناسبتها واعتبر بها، وقِف عندها كثيرا يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ

أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ انظر كيف خص الملائكة وكيف خص الأنبياء ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾، ثم قال مستنكرًا: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ يعني أنكم لو اتخذتم الأنبياء والملائكة أربابًا تدعونهم وتسجدون لهم لكان هٰذا كفرًا، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فدلَّ علىٰ أن عبادة ما سوىٰ الله كفر وإن كان المعبود ملكا، كفر وإن كان المعبود نبيا، لما قدمنا لك في أول الكلام من أن كل ما سوىٰ الله فهو عبد، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم]، ولهٰذا تأمّل الآيات التي ذكر فيها نبيه ﷺ حين سمَّاه بالعبد فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[الإسراء:١]، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر:٣٦]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[الجن:١٩]، ليُعرف أن من سوىٰ الله فهو عبد من عباد الله، وإن بلغ في المكانة والشرف وعليٍّ المنزلة ما بلغ، فإنه عبد من عباد الله، ولهٰذا أُمِرْتَ في التشهد أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فتشهد له بأنه ﷺ عبد من عباد الله كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا ذكر الله الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم– بهذا الاسم اسم العباد، وذكر الملائكة باسم العباد فلمَّا ذكر الملائكة قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأنبياء]، عباد شرف ومدح لمن هو عبد لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن عبادة الله شرف وعزّ لمن عبد الله ولم يشرك به، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ولما ذكر الأنبياء في أكثر من موطن سمَّاهم بالعبيد ، لما أراد أن يثني علىٰ نوح ماذا قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾[الإسراء] سماهم الله عَزَّ وَجَلَّ في مواطن كثيرة بالعباد، حتَّىٰ يُعلم أنه لا إلٰه حقٌّ سواه تعالىٰ، وأنه لا يعبد ولا يسجد ولا يُدعىٰ ولا ينذر ولا يحلف إلا بالله وحده لا شريك له، وهٰذا معنىٰ لا إلٰه إلا الله أنّه لا معبود حقٌّ سواه، ولهٰذا لقائل أن يقول قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[آل عمران:٨٠]، لم ذَكر الملائكة والنبيين؟، من الناس من يقول: الأنبياء لهم مكانة -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فليسوا مثلنا نقول: نعم لهم مكانة، فيقول: إذن نصرف لهم شيئًا من التعظيم، فنقول: ماذا تريد أن تعظمهم به، قال: ندعوهم! نقول: لا يصلح، فإن الله نهاك، وقال مستنكرا: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فأخبرك أن هٰذا كفر صرف العبادة حتىٰ ولو للملائكة، ولهٰذا تتبرأ الملائكة ممّن يعبدها يوم القيامة، ويتبرَّأ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ويتبرأ الصَّالحون، من كل أحد عبدهم ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الفرقان]، يتبرؤون منهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[البقرة]، فيتبرأ المعبود.

ولهٰذا حين يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ المسيح -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عن هؤلاء البهائم الذين يعبدونه من النصارىٰ ويعبدون أمه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ ﴾[المائدة] وهٰذا الذي دعوتهم إليه أن يعبدوك يا ربِّي

لوحدك، أنت ربي وأنت ربهم ثم قال مبينا عذرا: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ أما أنا فعبدٌ من عبادك لا أقول إلا ما أمرتني، هٰذا علىٰ رؤوس الأشهاد يوم القيامة يتبرّأ المسيح -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من عابديه، كما تتبرأ الملائكة من عابديهم، كل أحد من الصّالحين والملائكة والأنبياء يتبرؤون ويبينون علىٰ رؤوس الأشهاد أنهم ما أمروا أحد أن يعبدهم؛ لأنهم لم يشعروا أصلًا بمن يعبدهم، ويهتف ويصيح عند قبورهم، ما كانوا يعلمون كما قال المسيح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وحتّىٰ النّبي ﷺ، حين يرىٰ من يُذاد من هٰذه الأمة عن الحوض ويطرد عن حوضه ﷺ في القيامة كان رآهم قبل أن يموت ﷺ والظّاهر من حالهم الإسلام، فلما طُردوا عن الحوض وهم المرتدون أصحاب مسيلمة والأسود وأمثالهم ممّن طردون عن حوضه ﷺ، يسأل ﷺ عن هؤلاء الناس الذين طُردوا وكان يعلم أنهم مسلمون قبل أن يموت، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؛ لأنه لا يعلم الغيب ﷺ وهٰذا الحديث في «الصحيحين» في البخاري ومسلم إنهم لم يزالوا مرتدين علىٰ أدبارهم أو علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم، لأنهم تبِعوا مسيلمة وارتدوا والعياذ بالله وادعىٰ النبوة فصدقوه، وكذلك الذين ارتدوا بعد موت النبي ﷺ.

فالحاصل أن المعبودين من الملائكة أو الأنبياء أو الصّالحين لا ذنب لهم؛ لأنهم كانوا يدعون إلىٰ الله ويحذّرون من الشرك، فلما عُبدوا دون اختيارهم لم يكن لهم ذنب، ولهٰذا لمّا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾[الأنبياء] العابد والمعبود، قال: كفار قريش فما شأن عيسىٰ ألم يكن نبيا وأمثاله ممن عُبدوا، وكذلك العزير فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لا ذنب لهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء] لا ذنب لهم في أن يعبدوا بعد أن ماتوا، أو مثل المسيح بعد أن رُفع إلىٰ السماء لا ذنب له، إنما الذنب ذنب المشرك الذي عبد، أما المعبود فكما قال عيسىٰ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هٰذا الذي أمرتهم به ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

فالحاصل أن معنىٰ قولنا: لا إلٰه إلا الله ، لا معبود حقٌّ إلا الله، وهٰذا يعني أنَّ كل ما عُبد من دونه فهو باطل؛ لأنّك إذا قلت: لا معبود حقٌّ، فالمعنىٰ أن المعبود الحقّ هو الله وحده لا شريك له، وأنَّ ما سواه ممن عُبد فعبادته باطلة بدليل قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ فإذا عُبدوا فالعبادة بالباطل.

هٰذا معنىٰ لا إلٰه إلا الله وهٰذا هو أعرابها، وهٰذا الدَّليل علىٰ معناها من القرآن.

وهٰذه الكلمة العظيمة لها ركنان اثنان (لا إلٰه إلا الله) لها ركنان اثنان:

الركن الأول: هو النفي في قولنا: (لا إلٰه).

والركن الثاني: هو الإثبات في قولنا: (إلا الله)، ودلّ علىٰ هذين الرُّكنين آيات كثيرة من القرآن أيضا،

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ يتبرَّأ إبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من جميع ما يعبده قومه ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هو معنىٰ قوله: في أوَّل هٰذه الكلمة (لا إلٰه) يعني أتبرأ من جميع ما يعبد، ثم استثنىٰ الله وحده ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[الزخرف]، قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هو الإثبات؛ لأنها تضمنت النفي في قولنا: (لا إلٰه) وتضمنت الإثبات في قولنا: (إلا الله)، ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ تساوي قولنا: لا إلٰه؛ لأن الإله كما قلنا: هو المعبود، (إلا الله) تساوي قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

ومن ضمن ذلك ما يدل عليها الآية الجليلة في سورة البقرة قال تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ العروة الوثقىٰ هي لا إلٰه إلا الله، المستمسك بـ(لا إلٰه إلا الله) هو الذي يجمع أمرين اثنين بيَّنتهما الآية ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ والطاغوت معناه كما ذكر المفسرون ما عبد من دون الله، ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ تساوي قولنا: لا إلٰه؛ لأن معناها الكفر والبراءة من جميع المعبودات، فمن يكفر بالطاغوت ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، هٰذا معنىٰ قولنا: إلا الله، فيكفر بكلِّ ما عُبد من دون الله ولا يؤمن إلا بالله وحده، ولا يعبد إلا الله وحده ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ هٰذا هو المستمسك بالعروة الوثقىٰ.

ولهٰذا في الآية السَّابقة في قول الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ قال بعدها: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ هٰذه كلمة لا إلٰه إلا الله، تبقىٰ هٰذه الكلمة مستمرة في عقبه لا يزال فيهم من يقول: لا إلٰه إلا الله.

ودلَّ علىٰ هٰذين الرُّكنين أيضًا آيات أخرىٰ، قد يطول بنا المقام في الحقيقة، لو أردنا استقصاءها؛ لكن من أحسن ما يُرجع إليه في هٰذا كتاب العلامة الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو كتاب «معارج القبول» هٰذا ينبغي علىٰ طالب العلم أن يكون في مكتبه، هٰذا الكتاب تميَّز بمزايا ثلاث:

المزية الأولىٰ: سهولة العبارة.

والمزية الثانية: كثرة النُّصوص من الآيات القرآنية ومن الأحاديث النبوية ومن آثار السَّلف فيه، فهو يجمع نصوصًا كثيرة في الدلالة علىٰ مسائل الاعتقاد.

والمزية الثالثة: في هٰذا الكتاب أنه جامع لمسائل الاعتقاد، فيجمع ما يتعلَّق بالإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر وغيره، ويجمع ما يتعلَّق بالتحذير من السِّحر والكهانة وغيرها.

فالكتاب قيم جدًّا، وهو ممن تكلم في هٰذه المسألة باستفاضة رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له.

فنقول فيما يتعلق بهذين الركنين: بيَّنا ما يتعلق بالركنين والدليل عليهما.

يبقىٰ الكلام في شروط كلمة التوحيد، وشروط كلمة التوحيد ثمانية نعطيكم فيها بيتي شعر، تجمع هٰذه الشُّروط حتىٰ يحفظها طالب العلم، وهٰذه ومن طريقة أهل العلم رحمهم الله أنهم ينظمون مثلا ما يتعلَّق

بالفرائض، فيذكر مثلا صاحب الرَّحبية رحمهم الله الموانع التي تمنع من الإرث وينظمها في بيت شعر أو في بيتي شعر، والرَّحبية كلها نظم من أولها إلىٰ آخرها تبين الحجب وتبين الأصول وتبين الفروع، حتىٰ يحفظها طالب العلم ويسهل عليه أن يستحضرها، فكذلك شروط كلمة التوحيد نعطيكم هذين البيتين من الشعر يتمكَّن طالب العلم من استحضارها؛ لأنه بالتَّجرية إذا سألنا بعض الطلاب أذكر شروط كلمة التوحيد يأتي بخمسة منها يأتي بستة يأتي بسبعة، ويحاول أن يعيد وإذا أعاد كرر شرطا آخر فإذا حفظ هذين البيتين استحضرها مباشرة، هذان البيتان هما قول الناظم:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع   محبَّة وانقياد والقبولِ لها

هٰذه سبعة، زاد الشَّيخ ابن عتيق علىٰ النَّاظم لأنه فاته هٰذا الشَّرط فقال:

وزيد ثامنها الكفران منك بما   سوىٰ الإله من المعبود قد أله

فهٰذه هي شروط كلمة التَّوحيد (لا إله إلا الله) نذكرها في عجل إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ :

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (علمٌ) يعني من شروط كلمة التَّوحيد العلم بمعناها أن يكون القائل: لا إلٰه إلا الله يعرف معناها، أما إذا كان مثل ما قلت في أول الكلمة، إذا قيل له: ما معنىٰ لا إلٰه إلا الله قال: لا أدري، هٰذه الكلمة التي شهدت، وقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، ثم يُقال: هٰذا الذي شهد به ما معناها؟ تقول: لا أدري، لابد أن تدري، لابد أن تعلم، فمعنىٰ كلمة التوحيد مثل ما قدمنا قبل قليل معنىٰ كلمة التوحيد لا معبود حق إلا الله، فشرط العلم معناه العلم بمعناها؛ أن تعلم معنىٰ ما شهدت به.

وقد دلَّ علىٰ هٰذا الشرط حديث عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في «صحيح مسلم» قال: قال النبي ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إلٰه إلا الله دخل الجنة » فإنه ورد في حديث عن النبي ﷺأنه قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله دخل الجنة» هٰذا الحديث مطلق أن قائل: لا إلٰه إلا الله يدخل الجنة، فيأتي حديث عثمان ليقيِّد هٰذا الإطلاق فيكون المعنىٰ من قال: لا إلٰه إلا الله وهو يعلم دخل الجنة، هٰذا هو الشرط الأول، وهٰذا دليله، وقد قال الله في القرآن: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[الزخرف] شهد بالحق بلسانه وهم يعلمون أي يعلمون بقلوبهم ما شهدت به ألسنتهم أما أن يشهد بلسانه علىٰ أمر وهو لا يعلم معناه قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ في شرح الآية: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[الزخرف] أي علموا بقلوبهم ما شهدت به ألسنتهم، ينبغي أن الإنسان ما يشهد إلا بالذي يعلم كما قال عن إخوة يوسف: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف:٨١] فتشهد بالذي تعلم .

الشرط الثاني: شرط **اليقين**، وهٰذا الشرط كثيرا ما يتردد كلمة اليقين، فنحب أن يعرف طالب العلم كلمة اليقين ما مدلولها، ما معناها، ما أصلها اللغوي؟

تقول العرب: يقن الماء في القدح إذا استقرّ. ما دام يضطرب هكذا؛ فلا يقال: إن الماء يقن، فإذا ترك فترة استقر الماء، يقال: يقن الماء، يعني استقر في القدح، فلم يضطرب، هٰذا أصل معنىٰ كلمة اليقين؛ يفيد الاستقرار، ولهٰذا شرط اليقين دلَّ عليه عدد من النصوص منها قوله ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حديث

طويل يرويه البخاري ومسلم: «من لقيت من وراء هٰذا الحائط يشهد أن لا إلٰه إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنّة» علىٰ أي حال يشهد أن لا إلٰه إلا الله؟ مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنَّة، فهٰذا شرط اليقين.

ومن الشروط أيضا شرط (الإخلاص) وأيضا نحبّ أن نعرف بمعنىٰ الإخلاص، الإخلاص معناه تصفية العمل من شوائب الشرك؛ بأن تصفِّيه وتزكي عملك وأن لا يكون في عملك شيء لغير الله، وهٰذا الإخلاص ورد كثيرًا في القرآن وفي السُّنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾[البيّنة] فيكون الإنسان مخلصًا حين ينطق هٰذه الكلمة لا يريد بها إلا وجه الله، ولهٰذا جاء في الحديث تقييدها بقوله ﷺ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله مخلصا أو خالصًا من قلبه دخل الجنّة» فمن قال: لا إلٰه إلا الله مخلصا فهو من أهل الجنة.

فإن قلت: وهل يوجد أحد يقول: لا إلٰه إلا الله غير مخلص وما مصلحته في الدُّنيا بأن يقول: لا إلٰه إلا الله؟ نقول: نعم، في الدُّنيا من يقول: لا إلٰه إلا الله غير مخلص عياذا بالله، ذلك أن أهل النفاق يقولون: لا إله إلا الله إما رغبة وإما رهبة إما طمعا أو خوفا، يطمعون في الغنائم أو يطمعون مثلا في الزَّكاة، يعرف أن الزكاة لا تدفع إلا للمسلمين، فلو جاء الكافر لمسلم وقال: أعطني من زكاتك، أنا لا أعطيك أنت؛ لأن شرط الزكاة أن تكون لمسلم، وقد يقولها رهبة خوفا كما قال ﷺ: «أُمرت أن اقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم» أي أنهم إذا قالوا: لا إلٰه إلا الله صارت دماؤهم حراما، وصارت أموالهم حراما، إذا التزموا ما يترتَّب علىٰ لا إلٰه إلا الله، أما أن يقولها هكذا يلتزمون (لا إلٰه إلا الله) وما يترتب عليها من عمل ويُظهرون الصلاة ونحوه، فإذا قالوها فلا يحل أن نقول: قلوبهم فيها غير هٰذا، القلوب لله عَزَّوَجَلَّ، لا يعلم غيب القلوب إلا علام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا أظهر الإسلام فالواجب أن يكفّ عنه، وأمره إلىٰ الله كما قالت ﷺ في آخر الحديث وحسابهم علىٰ الله، الله هو الذي يحاسبهم إن كان له مقصد دنيوي مطمع مالي إن كان يخشىٰ علىٰ نفسه هٰذا إلىٰ الله الذي نتعامل معه هو الظاهر من حالهم فقط والغيب إلىٰ الله أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن هنا قال: لا إلٰه إلا الله أناس -والعياذ بالله- غرضهم الدُّنيا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[الحج] عياذًا بالله.

هذا ما يتعلَّق بشرط الإخلاص.

ومن ذلك أيضًا شرط (الصدق) بأن يكون قائل (لا إلٰه إلا الله) صادقًا يصدق قلبه ما نطق به لسانه، أما أن يقول: لا إله إلا الله وقلبه والعياذ بالله مكذب لهٰذه الكلمة فإنها لا تنفعه، ودل علىٰ هٰذا ما ذكره الله عن المنافقين في سورة البقرة قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ معناه أنه أظهر الإسلام وأظهر الخير وأظهر أنه من أهل لا إله إلا الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ثم حكم عليهم مباشرة، وقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ لماذا يا ربنا؟ قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ فدلَّ علىٰ

أن قولهم: (آمنا بالله) كذب، فنطقوا بألسنتهم بالإيمان؛ ولكن والعياذ بالله قلوبهم مكذبة، فلا ينتفعون بها، ولهٰذا جاء في الحديث أيضا من قال: «لا إلٰه إلا الله صدقا من قلبه» يكون صادقا لا يقول: لا إلٰه إلا الله هكذا وهو مكذب، هٰذا حال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح:١١].

هٰذا حال المنافقين عياذًا بالله إلىٰ غير ذلك من الشُّروط التي لعلي أقف عن إكمال بقيتها بعد أن أحلتكم علىٰ الكتاب كتاب العلامة الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وكذلك من الكتب الجيِّدة في هٰذا المختصرة كتاب «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادُّها» لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، ومن ذلك أيضا شروح كتاب التوحيد ومن أميزها «فتح المجيد» للشيخ العلامة عبد الرَّحمٰن بن حسن ومن أكثرها سلاسة وأيسرها تناولا لطلَّاب العلم شرح العلامة الشيخ محمد ابن عثيمين فإني أوصي به كثيرا فهو من أفضل شروح كتاب التوحيد «القول المفيد في شرح كتاب التوحيد» من أفضل الشروح لأنه ميسر والأمثلة فيه كثيرة يضرب الأمثله رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعبارته سهلة، فهو من أسهل الشروح ومن أنفعها، فيه فوائد جمة وكثيرة، يستطيع طالب العلم أن يرجع إليها هٰذه المراجع ويجد فيها بقية الكلام علىٰ هٰذه الشروط.

هٰذا ما يتعلق بلا إلٰه إلا الله من جهة معناها والأدلة عليها ومن جهة شروطها.

يبقىٰ معنا الكلام علىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله في الدقائق الباقية فنقول: شهادة أن محمدا رسول الله لها ركنان أيضا:

الرُّكن الأول: الشَّهادة بأنه عبد.

والركن الثاني: الشهادة بأنه رسول ﷺ.

وهٰذان الرُّكنان ذكرا في القرآن كثيرا جدًّا، وكما تقدم قبل قليل سمَّاه الله عَزَّوَجَلَّ بالعبد في مواضع كثيرة من القرآن كما في قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ ﴾ مقام الإسراء عظيم، أسري به إلىٰ المسجد الأقصىٰ ثم عرج به إلىٰ السماء الدنيا مقام عظيم كبير، فلما كان هٰذا المقام عظيما بيّن سبحانه وبحمده أن هٰذا الكريم الذي هو سيد ولد آدم بلا منازعة، وأفضل العالمين -صلوات الله وسلامه عليه- أنه عبد لله فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ بيانا لكونه عبدا، ولما ذكر مقام التحدي فقال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ يكفيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[الزمر:٣٦] ويتولَّىٰ أمره الله مهما خوِّف فالله عَزَّوَجَلَّ حافظه ﷺ وفي مقام الدعوة قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن] فالعبودية لله شرف، وإنّما تكون العبودية لغير الله هي الذل، فمن تعبد وخضع لغير الله فقد ذل وخضع، إذ تمام الخضوع وتمام الذل لا يكون إلا لله رب العالمين الذي يأتيه من في السَّمٰوات ومن في الأرض عبيد له سبحانه من ملَك أو نبي أو صالح أو إنس أو جن أو كائن ما كان.

الركن الثاني أنه رسول ﷺ فهو عبد؛ لكنه يختلف ﷺ عن غيره بالرسالة، وإذا كان رسولا فإنه يترتب علىٰ رسالته أمور أربعة أن تصدِّقه في كل خبر، وأن تطيعه في كل أمر، وأن تجتنب كل نهي نهاك عنه، وأن

لا تتعبَّد وتتقرب إلىٰ الله إلا بالشرع الذي بينه.

فيترتب علىٰ الشهادة بأنه رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع ﷺ.

فإذا جاء حديث من الأحاديث عن الغيب الماضي أو عن الغيب المستقبل أو عن أمر الملائكة أو عن صفات الله أو عن أي أمر من الأمور صدقنا وآمنا لأن القائل ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم]، فيصدَّق في كل أخباره، وإذا أمر فالواجب أن يطاع، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤]، فالرُّسل أرسلوا ليطاعوا لا ليأمروا ويعصوا، يجب أن يطاعوا صلوات الله وسلامه عليهم ومن أطاعه ﷺفهو مطيع لله كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠]؛ لأنه ﷺ إنَّما يأمر بما أمره الله به فطاعته طاعة لله، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، جميع النواهي التي نهىٰ عنها أيا كانت يجب اجتنابها، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، لا يجوز أن تخالف سنته ﷺ إذا أردنا أن نصلي فقد قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» إذا أردنا أن نحج فقد قال: «خذوا عني مناسككم» إذا أردنا أن نتوضأ، إذا أردنا أن نأمر بالمعروف أن ننهىٰ عن المنكر، أن نصوم، أن نفعل أي أمر، فالواجب أن نعرف سنَّته وطريقته ﷺ وأن نلزمها وأن نتَّبعه حتىٰ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن استطعت أن لا تحكَّ رأسك إلا بأثر فافعل.

يعني حاول أن تتبع حتىٰ لو علمت أن النبي ﷺ حك رأسه بطريقة فافعل مثله، يعني من شدة الاتباع، ولهٰذا قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ» أي الأضراس؛ يعني ليكن استمساككم بها شديدا كما أن الإنسان إذا خشي أن يفوته أمر ويفلت منه عض عليه بأضراسه؛ يعني استمسك بها استمساكا تاما، وإياك أن تحيد عنها.

هٰذا ما يتعلق بالشهادة له ﷺ بالرسالة.

وهذان الركنان أنه عبد الله ورسول الله قد دل عليهما أحاديث كثيرة، من أصرح الأحاديث -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من أن قوما أتوه وقالوا: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا فقال ﷺ: «يا أيّها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمَّد عبد الله ورسوله، والله» حلف وهو الصّادق الذي لا يحتاج أن يحلف «والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله» يعني جعل لي رب العالمين منزلة لا ترفعوني فوقها ما هي منزلته؟ هي قوله: «أنا محمّد عبد الله ورسوله» ولهٰذا لما بدؤوا يمدحون وفي بعض الروايات أن وفدا قالوا له: وأنت الجفنة الغراء وأنت كذا وكذا وبدؤوا يمدحون، فنهاهم ﷺ عن هٰذه المبالغة.

لاشكَّ أنه سيد ولد آدم وأنه خير العالمين ﷺ؛ لكن أمرهم أن يقولوا بالقول المعتاد: رسول الله، نبي الله، ونحو ذلك «أنا محمد عبد الله، عبد الله ورسوله جمع بين الركنين، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي» هٰذه هي منزلته؛ أنه عبد من عباد الله؛ ولكنه رسول واجب طاعته وتصديقه ﷺ، ولهٰذا قال -

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «لا تطروني» ومعنىٰ الإطراء المبالغة في المدائح والكذب في ذلك، «لا تطروني كما أطرت النَّصارىٰ ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»، وأنت في التشهد حين تصلي، تصلي في عمرك آلاف المرات، إذا أتيت إلىٰ التحيات تقول الركنين: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله» ولهٰذا قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله» تقدَّم لماذا خُصَّ عيسىٰ بالذات مع أن نوحا وسائر الأنبياء وآدم عبيدٌ لله وأنبياء لله منهم أنبياء ومنهم رسل، لماذا خصّ عيسىٰ؟ لأنَّ عيسىٰ قد افترقت طائفتان من طوائف الضلال:

النصارىٰ بالغوا في شأنه فقالوا: إنه الله، إنه ابن الله، إنه ثالث ثلاثة.

واليهود قالوا فيه القولة العظيمة فكذبوه وقالوا: إنه ليس برسول، وقالوا قبحهم الله وأخزاهم: إنه ابن زنىٰ أكرمه الله وأجله عن ذلك.

فلهٰذا أنت تشهد لعيسىٰ بأنه عبد الله لماذا؟ ردا علىٰ النصارىٰ، فإذا قالوا: إنه الله، قيل: لا، عبد من عباد الله، كيف يكون هو الله وكيف يكون ابنا لله؟ وكيف يكون ثالث ثلاثة وهو عبد؟.

وإذا قال اليهود: ليس برسول الله، قلنا: كذبتم إخوان القردة والخنازير؛ بل رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- ومن خيار رسل الله ومن أولي العزم، صادق فيما أخبر عن ربِّه، بلغ ما يجب عليه أن يبلغه، ولم يزد ولم ينقص كسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولهٰذا خُص عيسىٰ من بين الأنبياء مع أن جميع الأنبياء عبيد لله وأنبياء، لكن لأن أهل الغلو غلوا فيه فأخرجوه عن العبودية؛ ولأن أهل الجفاء والغلظ وقلة الأدب من اليهود قالوا فيه المقولة العظيمة فإنك شهدت له بالرسالة، وشهدت أنه عبد الله ورسوله صلوات وسلامه عليه وعلىٰ نبينا وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين.

فالحاصل أن هذين الرُّكنين هما ركنا الشهادة لمحمد ﷺ بأنه عبد الله ورسوله، والركنان ركنان عظيمان؛ لأنهما ينفيان الإفراط والتفريط، إذا قال أحد في رسول الله ﷺ إنه ﷺ يعلم الغيب ويجيب المضطر ويغيث المضطر ويوجَّه له الدُّعاء قيل: لا، هو عبد من عباد الله، وهٰذه الأمور لا تكون إلا لله، هو ﷺ يعبد الله كما تعبده أنت، يسجد لله ويدعو الله ويأبىٰ بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه أي نوع من أنواع المبالغة، ولهٰذا لما بالغ هؤلاء وصاروا يمدحونه قال: «لا يستهوينكم الشَّيطان» يعني ينهاهم عن المبالغة «والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي» ولهٰذا لما قال رجل له: يا رسول الله ما شاء الله وشئت، قال ﷺ : «أجعلتني لله ندا؟، قل ما شاء الله وحده» أبىٰ ﷺ أن يُقرن بينه وبين الله في المشيئة، حتىٰ تتعوَّد الأمَّة علىٰ التعامل الحق مع الرسول ﷺ، لا يجوز التعامل مع رسول الله ﷺ بطريق الغلو والمبالغة فيدعىٰ ويسجد له وينذر له؛ لأن هٰذا لا يكون إلا لله.

ولا يجوز أيضا ما يفعله أهل الجفاء وقلة الحياء الذين إذا عُرضت أحاديث رسول الله ﷺ ردوها وأبوا

أن يقبلوها، وقال الواحد منهم في صفاقة وقلة أدب: أنا لا أقتنع بهذا الحديث، سبحان الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، يقول لك: أصدق ولد آدم ﷺ على الإطلاق وسيد الإنس والجن أجمعين يقول حديثا ولا تقبله عياذا بالله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ يكفي؟ لا ما يكفي ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ يكفي؟ لا يكفي ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء] أن تحكِّمه ﷺ ولا يكون في قلبك وصدرك حرج وتسلم لما أخبر به عن ربه؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ، وإذا كان لك هوىٰ تطَّرحه وترميه جانبا، وتقول: قول رسول الله ﷺ مقدم علىٰ هواي وعلىٰ قولي وقول آبائي وأمهاتي وعلىٰ قول الناس كلهم؛ لأنه رسول الله هكذا ينبغي أن يكون المسلم متوازنا لا يبالغ مبالغة من يعبدون الرسول ﷺ فيقول: الواحد –والعياذ بالله– يا رسول الله؛ أغثني، يا رسول الله؛ اكشف ضري، يا هٰذا أتدري أن الرسول ﷺ بُعث ليحارب أهل الشرك في هٰذا، هٰذا بعينه ما حارب عليه؛ لأنهم كانوا يدعون غير الله، فلا يجوز المبالغة في أمره ﷺ وفي الوقت نفسه لا يجوز أن يُتعامل معه ﷺ كما يتعامل مع الآخرين فقوله القول المقدم وأمره الأمر الذي يجب أن يلتزم ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النّور] حذّر الله أهل المخالفة لرسول الله ﷺ من أمرين:

الأمر الأول: الفتنة، قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، يعني الذي يرد قول النبي ﷺ قد يرتد والعياذ بالله، ويُختم له بالكفر؛ لأنه رده علىٰ رسول الله ﷺ أمره من أدل الأدلة علىٰ ضعف إيمانه ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أو يتعرض لعذاب؛ لكن هٰذا العذاب أليم شديد عياذا بالله، وبذلك يكون المسلم متوازنا، يتعامل مع نبي الله ﷺ التعامل السليم الذي يستحقه ويعطيه ما قال، «والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي» له منزلة، لا ترفعوني فوقها؛ لأنه إذا رفع عن هٰذه المنزلة أخرج عن نطاق البشرية إلىٰ نطاق الربوبية، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ما الفرق ؟ ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[الكهف:١١٠] الفرق أنه يوحىٰ إليه أنه رسول الله وإلا فهو بشر يصيبه ما يصيب البشر؛ أصابته الأمراض –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، وفي أُحد شُجَّ وجهه ﷺ وهشّمت البيضة علىٰ رأسه وسقط في حفرة من الحفر، قال أهل العلم: لم حصل له هٰذا وهو سيِّد الناس أجمعين ﷺ؟ حتىٰ يعلم أنه عبد من عباد الله يصيبه المرض، ويصيبه النسيان، ويموت كما يموت الناس، حتىٰ يُعلم أنه ليس لأحد أن يعبده من دون الله –صلوات الله وسلامه عليه–؛ بل رسول كريم يصدَّق فيما أخبر ويطاع فيما أمر، ويجتنب ما نهىٰ عنه وزجر ولا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما شرع.

۞۞۞۞